



خفايا عارية

الجزء الأول

خيوط الدم وبوابة الشرق

من رماد الحروب الإغريقية إلى فتوحات الإمبراطورية المقدونية

إعداد وصياغة / أماني سليمان

خفايا عارية

الجزء الأول

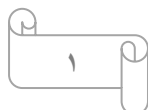
خيوط الدم وبوابة الشرق

من رماد الحروب الإغريقية

إلى فتوحات الإمبراطورية المقدونية

إعداد وصياغة

أمانى سليمان



الحضارة ليست ما تتركه الأيدي خلفها فحسب
بل ما تعجز القرون عن انتزاعه من ذاكرة الإنسان

كلُّ حجرٍ نجا من الزمن
يحمل في صمته حكايةً لم يستطع الزمن دفنها

لا تموت الحضارات حين تسقط مدنها
بل حين يعجز من يأتي بعدها عن فهم ما أرادت أن تقول

مقدمة

قبل أن تصبح الحكاية تاريخاً

ماذا لو أخبرتك أن العالم الذي تظن أنك تعرفه لم يكشف لك بعد سوى جزء صغير من حكايته؟

أن وراء الأعمدة التي صمدت في وجه القرون، والتماثيل التي بقيت تحقّق في الفراغ، والأساطير التي تناقلتها الألسن حتى اختلط فيها الخيال بالحقيقة، عالماً كاملاً عاش فيه بشر لم يكونوا يعرفون أنهم سيصبحون يوماً أسماءً في الكتب، وأن أفكارهم وأسئلتهم وصراعاتهم ستعبر آلاف السنين لتصل إلينا؟

هناك، على شواطئ بحرٍ تتناثر فيه الجزر كأنها شظايا عالم قديم، قامت مدن لم تتشابه حتى حين جمعتها اللغة والآلهة والحكايات. مدينة آمنت بأن قوة الإنسان في عقله، وأخرى جعلت من الانضباط طريقاً للحياة. رجال وقفوا في الساحات يتجادلون حول العدالة والحكم والحقيقة، وبحارة حملوا بضائعهم وأحلامهم إلى شواطئ بعيدة، وشعراء منحوا الآلهة وجوهاً ومصائر، وفلاسفة لم يكتفوا بما ورثوه، بل تجرؤوا على السؤال

ممّ صنّع العالم؟ وما الإنسان؟ وكيف نعرف أن ما نؤمن به هو الحقيقة؟

لكن خلف هذا العالم الذي أسر مخيلة الأجيال، كانت هناك حياة أخرى أقلّ لمعاناً، وأكثر شبهاً بنا مما نتوقع.

كانت هناك أمهات يقلقن على أطفالهن، وآباء يخشون الفقر، ونساء عشن في ظلال القوانين التي وضعها الرجال، وعبيد حُرّموا من الحرية، وفقراء لم تمنحهم المدينة التي تتغنى بالمجد نصيباً متساوياً منه. كانت هناك موائد

عامرة وأخرى فقيرة، وأعياد تملأ الشوارع بالموسيقى، وحروب تعيد إلى البيوت أخبار الغائبين، وأحلام صغيرة لا يذكرها التاريخ، مع أنها كانت يوماً العالم كله بالنسبة إلى أصحابها.

فالحضارة ليست ما تركه الملوك وحدهم، ولا ما حفظته الكتب عن المعارك والانتصارات. إنها أيضاً يد الحرفي التي صاغت إناءً، وخطوة الجندي الذي لم يعد إلى بيته، وصوت الممثل الذي جعل جمهوراً يبكي، وعقل الطبيب الذي حاول أن يفهم المرض، وعين النحات الذي أراد للحجر أن يبدو حياً. إنها ما بناه الإنسان، وما خافه، وما عبده، وما شكّ فيه، وما عجز عن تفسيره، ثم مضى تاركاً خلفه آثاراً أكثر صمتاً من أن تروي الحكاية كاملة، وأكثر قدرة على إثارة الأسئلة من أن نمرّ أمامها بلا اكتراث.

واليونان القديمة ليست عالماً منفصلاً عن بقية العالم، ظهرت حكمته من فراغ ثم أضاعت البشرية وحدها. فقد تشكّلت عبر صلات طويلة مع حضارات أقدم، وتبادلت معها التجارة والمعرفة والتأثير، واستفادت من خبرات شعوب سبقتها. وما نُسب إليها من إنجازات لا ينتقص من قيمته أن نعرف جذوره، بل يصبح فهمنا له أعمق حين نراه في سياقه الحقيقي، ضمن حكاية الإنسان التي لم تكتبها حضارة واحدة بمفردها.

ولعل أكثر ما يستحق الاكتشاف ليس ما نعرفه عن اليونان، بل ما نظن أننا نعرفه.

فالديمقراطية التي نتحدث عنها اليوم لم تكن حقاً للجميع في أثينا القديمة. والأساطير التي تبدو لنا حكايات عجيبة كانت جزءاً من عالم ديني واجتماعي شديد التعقيد. وأسماء الفلاسفة الذين نقرأ أفكارهم اليوم وصلت إلينا عبر نصوص حفظها آخرون، وفسّروها، واختلفوا حولها، ونقلوها من لغة إلى

أخرى. أما المدن التي تبدو متشابهة على الخرائط، فقد اختلفت في قوانينها وعاداتها ومصائرهما إلى حدّ يجعل الحديث عن اليونان وكأنّها مدينة واحدة خطأ يحجب أكثر مما يكشف.

لهذا لن ندخل هذا العالم من بوابة واحدة، ولن نكتفي بمشاهدة واجهته المضيئة. سنعود إلى جذوره، ونتتبع تشكّل مدنه، ونقترب من حياة سكانه، ونصغي إلى أساطيره من دون أن نخلطها بالوقائع، ونتأمل أفكاره من دون أن نفصلها عن زمانها، ونرافق سفنه وجيوشه وتجارته، ونرى كيف اتسعت حدوده ثم تبدّلت موازين القوة، وكيف انتهت عصور وبدأت أخرى، بينما ظلت بعض الأسئلة حيّة، تنتقل من جيل إلى جيل.

سنحاول أن نرى الإنسان قبل أن يتحول إلى تمثال، والمدينة قبل أن تصبح أطلاً، والفكرة قبل أن تُكتب في كتاب مدرسي. وسنقترب من التاريخ لا بوصفه مجموعة تواريخ محفوظة، بل بوصفه حياةً جرت بالفعل؛ حياةً لم يعرف أصحابها نهايتها، ولم يستطيعوا النظر إلى أنفسهم من المسافة التي ننظر منها إليهم اليوم.

وربما، حين نصل إلى الصفحات الأخيرة، لن تكون اليونان قد أصبحت عالمًا مألوفًا تمامًا، وهذا مقصود. فالماضي الذي نفهمه حقًا ليس ذلك الذي نغلق أسئلته كلها، بل الذي نتعلم كيف نقترب منه، ونميّز بين ما نعرفه وما نرجّحه وما لا نزال نجهله. وحين نغادره، قد نكتشف أن بعض ما حسبناه بعيدًا عنا لم يكن بعيدًا إلى هذا الحد؛ وأن وراء كل حضارة عظيمة أناسًا عاشوا، وخافوا، وأحبوا، واختلفوا، وحاولوا أن يتركوا للعالم شيئًا يبقى بعدهم.

فهل نستطيع أن نعرفهم حقًا، بعد كل هذه القرون؟

ربما لا نعرفهم كاملين أبدًا لكننا نستطيع أن نقترب وهذه الرحلة تبدأ من هنا.



قبل أن تولد اليونان التي نعرفها

بحرٌ سبق الأبطال

حين نتحدث عن الحضارة اليونانية، تقفز إلى الأذهان أسماء أثينا وإسبرطة، ومعبد البارثينون، وزيوس وأثينا، وهوميروس وأرسطو، والإسكندر الأكبر. لكن هذه الصورة الشهيرة تمثل مراحل من تاريخ طويل، سبقتها مجتمعات ازدهرت قبل أن تظهر اليونان الكلاسيكية التي نعرفها بقرون.

فالحضارة اليونانية لم تبدأ فجأة عندما ظهر الفلاسفة، ولم تنشأ في مدينة واحدة، ولم تكن منذ البداية دولة موحدة تحمل اسم اليونان. لقد تشكل عالمها القديم تدريجيًا في منطقة تتداخل فيها الجبال والجزر والسهول والسواحل، وتربطها مياه بحر إيجه بمناطق واسعة من شرق البحر المتوسط.

كانت الجغرافيا عاملاً مهماً في تشكيل هذا العالم. فالجبال قسمت أجزاء كبيرة من البر اليوناني إلى أحواض ووديان ومناطق يصعب التواصل بينها براً، بينما أتاحت السواحل والجزر طرقاً بحرية تصل بين المجتمعات المتباعدة. ولم يكن البحر حاجزاً يفصل اليونانيين عن الآخرين بقدر ما كان، في أحيان كثيرة، طريقاً للتجارة والهجرة والتبادل الثقافي.

ومع ذلك، لا ينبغي أن نختزل الجغرافيا في تفسير واحد؛ فالجبال لم تجعل اليونانيين محكومين بالعزلة، والبحر لم يحولهم تلقائياً إلى بحارة وتجار. ما صنع الفرق هو كيفية استغلال المجتمعات لهذه البيئة، وما امتلكته من موارد وتقنيات، وما أقامته من علاقات مع الشعوب المجاورة.

أين بدأت الحضارة اليونانية؟

لفهم البدايات، ينبغي أن نميز بين ثلاثة نطاقات جغرافية مترابطة

البر اليوناني حيث ظهرت لاحقاً مراكز مهمة، منها أثينا وطيبة وميكيني.

الجزر الإيجية التي شهدت مجتمعات مبكرة، من بينها ثقافات جزر سيكلاديس

جزيرة كريت التي قامت فيها الحضارة المينوية، وأصبحت من أبرز مراكز العالم الإيجي في العصر البرونزي.

ولم تكن هذه المجتمعات نسخاً متطابقة من بعضها. اختلفت في أنماط الاستقرار والفنون والعمارة والتنظيم الاجتماعي، لكنها دخلت في علاقات تجارية وثقافية متشابكة. وتكشف مجموعات الآثار الموجودة في متاحف مثل المتحف البريطاني ومتحف أشموليان عن عالم واسع من الفخار والأواني المعدنية والأختام والحلي واللقى الجنائزية، يتيح لنا تتبع هذه العلاقات بعيداً عن الروايات الأدبية اللاحقة.

ثلاث حضارات سبقت العصر اليوناني الكلاسيكي

حضارة جزر سيكلاديس

في الألف الثالث قبل الميلاد، مع امتدادات أقدم وأحدث ازدهرت مجتمعات جزر سيكلاديس في بحر إيجة، واشتهرت بتمثيلها الرخامية، ولا سيما الأشكال البشرية المبسطة التي عُثر على كثير منها في سياقات جنائزية. وتشير هذه التماثيل أسئلة عن المعتقدات والطقوس ووظائف الأشياء التي صاحبت الموتى، لكن لا يمكن الجزم بأن جميعها كانت تؤدي غرضاً دينياً

واحدًا. وتستحق هذه الحضارة دراسة مستقلة؛ لأن فنها وموادها وصلاتها البحرية تكشف عن عالم إيجي مبكر، لا مجرد مرحلة تمهيدية عابرة.

الحضارة المينوية في كريت

ازدهرت مراكزها القصرية خصوصًا منذ الألف الثاني قبل الميلاد ارتبطت هذه الحضارة بقصور كبرى، من أشهرها كنوسوس وفايستوس وماليا وزاكروس. ولم تكن هذه المنشآت مجرد مساكن لملوك؛ فقد ارتبطت بمظاهر الإدارة والتخزين والحرف والطقوس، وإن اختلفت وظائفها الدقيقة بين موقع وآخر.

اشتهر الفن المينوي بالتصوير الجداري الملون، والزخارف البحرية، والأواني المصنوعة بإتقان. كما تدل الأختام والأواني واللقى المستوردة على اتصالات بحرية واسعة. أما طبيعة السلطة السياسية والدينية داخل القصور، فما تزال موضع بحث ونقاش.

ومن المهم ألا نعامل كريت باعتبارها نسخة مبكرة من أثينا؛ فلها تاريخها وخصائصها الخاصة، واسم المينوية نفسه تسمية حديثة مستمدة من الملك مينوس الوارد في الأساطير اليونانية، وليس الاسم الذي نعرف به سكانها من نصوصهم الذاتية.

الحضارة الميسينية

ازدهرت مراكزها الكبرى في أواخر العصر البرونزي ظهرت في البر اليوناني مراكز محصنة، أبرزها ميكيني وطيبة وبيلوس، وارتبطت بقصور ومخازن وإدارة مركزية وطبقات اجتماعية متفاوتة. واستخدم الميسينيون نظام الكتابة المعروف باسم الخطي ب، الذي أمكن فك رموزه في القرن العشرين، وتبين أنه يسجل شكلًا مبكرًا من اللغة اليونانية.

هذه نقطة تاريخية حاسمة لدينا هنا دليل كتابي على أن اللغة اليونانية كانت مستخدمة قبل العصر الكلاسيكي بقرون طويلة. لكن ألواح القصور لا تقدم لنا رواية أدبية كاملة عن المجتمع؛ فالكثير منها سجلات إدارية تتناول السلع والأفراد والتوزيع والالتزامات.

وتساعدنا هذه النصوص، إلى جانب القصور والمقابر والأسلحة والأواني، على إعادة بناء جانب من عالم الميسينيين.

لماذا لا نبدأ بهوميروس؟

لأن هوميروس، حتى لو كانت أشعاره تحفظ ذكريات عن عالم العصر البرونزي، لا يمثل شاهدًا مباشرًا على كل ما جرى فيه. فالإلياذة والأوديسة وصلتا إلينا ضمن تقاليد شعرية تشكلت بعد انهيار الممالك الميسينية بقرون، واختلطت فيهما عناصر من الذاكرة القديمة والتقاليد الشفوية والتصورات التي نشأت في عصور لاحقة.

لذلك لا يجوز أن نأخذ كل تفصيل في أشعاره ونضعه تلقائيًا في زمن حرب طروادة المفترضة. يمكن مقارنة الشعر بالآثار، لكن المقارنة تحتاج إلى فحص كل حالة على حدة.

ومن هنا تبدأ إحدى القضايا الممتعة في تاريخ اليونان كيف تحولت ذكريات عالم قديم انهارت مراكزه وقصوره إلى قصص عن الأبطال والملوك والآلهة، ثم أصبحت هذه القصص جزءًا من الهوية الثقافية لليونانيين في عصور لاحقة؟

هذه المسألة ستقودنا لاحقًا إلى الأساطير، وحرب طروادة، وذاكرة المجتمعات، والفارق بين التاريخ والرواية الأدبية.

حين انهار عالم القصور

في أواخر العصر البرونزي، تعرضت مراكز كبرى في شرق البحر المتوسط لتحويلات واضطرابات واسعة. انهارت ممالك ميسينية، وتراجعت أنظمة القصور، واختفى استخدام الخطّي ب في اليونان بعد سقوط النظام الإداري الذي ارتبط به. والأهم أن انهيار القصور لا يعني اختفاء السكان أو اللغة اليونانية. فقد استمرت المجتمعات البشرية، وإن تغيرت أنماط الاستقرار والإنتاج والسلطة، ودخلت مناطق من اليونان فترة تقل فيها الأدلة المكتوبة وتختلف فيها صورة الحياة عن عالم القصور السابق.

ويُطلق على جزء من هذه المرحلة اسم العصور المظلمة اليونانية، لكن التسمية تشير أساسًا إلى تراجع بعض مظاهر التنظيم والكتابة وندرة الأدلة المتاحة مقارنة بالعصر البرونزي اللاحق والعصر الكلاسيكي؛ ولا تعني أن الناس توقفوا عن الإنتاج أو أن كل أشكال الحياة الثقافية اختفت.

ومن هذه التحويلات ستتشكل، على مراحل، المجتمعات التي نعرفها من تاريخ اليونان اللاحق، وصولًا إلى ظهور المدن المستقلة، وتطور الكتابة الأبجدية، وانتشار الاستيطان اليوناني عبر البحر المتوسط والبحر الأسود.

من انهيار القصور إلى ولادة المدن

الحياة بعد انهيار العالم الميسيني

لم يؤدّ انهيار الممالك الميسينية في أواخر العصر البرونزي إلى اختفاء السكان الذين عاشوا في البر اليوناني والجزر المحيطة به، لكنه غير شكل الحياة السياسية والاقتصادية. فقد تراجعت أنظمة القصور التي كانت تجمع السلطة وتدير المخازن والحرف وتوزيع الموارد، واختفت معها الكتابة

الإدارية المعروفة باسم الخطي ب، التي كانت تستخدم لتسجيل شؤون تلك المراكز. لم يعد لدينا، بعد ذلك، النوع نفسه من السجلات التي تسمح بتتبع حركة السلع والعمال والموارد داخل القصور. لذلك يعتمد فهم هذه المرحلة بدرجة كبيرة على الآثار، مثل الفخار والمقابر والمستوطنات، وعلى مقارنة التغيرات بين المناطق المختلفة.

لكن غياب السجلات المكتوبة لا يعني غياب التاريخ. فالناس واصلوا الزراعة وتربية الحيوانات وصناعة الأدوات والتبادل التجاري، وإن اختلفت أحوالهم من منطقة إلى أخرى. كما أن بعض المواقع شهدت استمرارية سكانية، في حين تراجعت مواقع أخرى أو تغيرت أنماط الاستقرار فيها.

وهنا ينبغي الانتباه إلى أمر مهم لم تنتقل اليونان من نظام القصور إلى نظام المدن المستقلة في خطوة واحدة. لقد كانت هناك قرون من التحولات المتفاوتة، ولم تكن جميع المناطق تسير بالسرعة نفسها.

لماذا سُميت هذه المرحلة بالعصور المظلمة؟

يطلق المؤرخون اسم العصور المظلمة اليونانية على المرحلة التي تلت انهيار العالم الميسيني، واستمرت تقريباً من القرن الثاني عشر إلى القرن التاسع قبل الميلاد، مع اختلاف الحدود الزمنية بحسب المنطقة والتقسيم المعتمد.

لم تأتِ التسمية لأننا نعرف أن الحياة كانت بائسة أو أن الثقافة اختفت، بل لأن الأدلة المكتوبة أصبحت أقل بكثير مما كانت عليه في عصر القصور، ولأن بعض مظاهر التنظيم السياسي والاقتصادي السابق تراجعت.

ومع ذلك، لم تكن المرحلة خالية من التطور. فقد تغيرت صناعة الفخار، وتبدلت أنماط الدفن، وظهرت تحولات في الاستيطان والعلاقات الاجتماعية. ومن أبرز الشواهد على هذه التغيرات الفخار الهندسي، الذي انتشرت زخارفه المنظمة خلال القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، وبلغت أشكاله المتطورة مستويات لافتة من التعقيد. وتكشف هذه القطع أن الحرفيين لم يتوقفوا عن الابتكار، بل طوروا أساليبهم في ظل ظروف مختلفة عن ظروف القصور الميسينية.

عودة الكتابة إلى العالم اليوناني

من أبرز التحولات التي شهدتها اليونان في أواخر هذه المرحلة اعتماد الأبجدية اليونانية. لم تكن الكتابة الأبجدية اختراعاً يونانياً منفصلاً عن محيطه؛ فقد استلهم اليونانيون نظامهم الكتابي من الأبجدية الفينيقية، مع تعديلات مهمة، أبرزها تخصيص علامات للحركات الصوتية، إلى جانب الحروف التي تدل على الصوامت.

أتاح هذا التعديل تمثيل الأصوات في اللغة اليونانية بطريقة تناسب بنيتها، وأصبحت الأبجدية أداة أساسية في تدوين النصوص وتداول المعرفة، وإن لم يؤدّ ظهورها إلى انتشار القراءة والكتابة بين جميع السكان فوراً.

ولا يمكن تحديد شخص واحد اخترع الأبجدية اليونانية، ولا لحظة واحدة ثبت فيها اعتمادها في كل المناطق. فالأدلة تشير إلى عملية اقتباس وتكييف جرت عبر الاتصال بين المجتمعات، ويرجح أنها تمت خلال القرن الثامن قبل الميلاد، مع وجود اختلافات محلية في أشكال الحروف واستخداماتها.

وهنا تظهر إحدى أهم نقاط الاتصال بين اليونان وشرق البحر المتوسط فقد استفاد اليونانيون من نظام كتابي طوره الفينيقيون، ثم أعادوا تكييفه ليناسب لغتهم. وهذا مثال واضح على أن الحضارات لا تتطور في عزلة، بل تتبادل الأدوات والأفكار، ثم تمنحها أشكالاً جديدة.

من التجمعات المحلية إلى المدن المستقلة

مع مرور الوقت، ظهرت في اليونان مراكز سياسية واجتماعية أخذت تتطور إلى ما يعرف باسم المدينة-الدولة، أو البوليس باليونانية.

لم تكن البوليس مجرد مدينة تحيط بها الأسوار؛ فقد كانت مجتمعاً سياسياً يضم مركزاً عمرانياً ومناطق ريفية تابعة له، وتتشكل فيه مؤسسات وقواعد تنظم شؤون المواطنين. وقد اختلفت طبيعة هذه المؤسسات من مدينة إلى أخرى، كما تغيرت داخل المدينة الواحدة عبر الزمن.

في بعض الحالات، ارتبط المركز بموقع مرتفع يسهل الدفاع عنه، وهو ما يُعرف بالأكروبوليس، أي المدينة العليا أو الحصن المرتفع. وفي حالات أخرى، اتسع العمران حول الأسواق والمناطق الدينية ومراكز التجمع.

لكن لا ينبغي تخيل المدن اليونانية وكأنها ظهرت جميعاً وفق نموذج واحد. فقد نشأت كل مدينة ضمن ظروفها المحلية، وتأثرت بعوامل مثل الجغرافيا والزراعة والتجارة والصراعات بين الجماعات.

كما لم تكن اليونان دولة موحدة في هذه المرحلة. فقد احتفظت المدن باستقلالها السياسي، وامتلكت نظاماً مختلفة للحكم، وأقامت تحالفات أو دخلت في حروب مع جيرانها. وهذا التعدد سيصبح لاحقاً أحد أبرز سمات التاريخ اليوناني، ومصدراً للتنافس الثقافي والعسكري والسياسي بين مدنه.

كيف غيّر البحر شكل العالم اليوناني؟

ساعدت الملاحة البحرية على ربط المجتمعات اليونانية بعضها ببعض، كما أتاحت لها التواصل مع الأناضول وقبرص وبلاد الشام ومصر ومناطق أخرى من حوض البحر المتوسط.

لم يكن الاتصال البحري قائمًا على التجارة وحدها؛ فقد انتقلت معه تقنيات الصناعة وأنماط الفن والأفكار الدينية والعادات، كما انتقل الأشخاص أنفسهم بين الموانئ والمستوطنات.

ومع نمو بعض المجتمعات، ازدادت أهمية الموارد التي لم تكن متوافرة بكميات كافية في جميع المناطق. فالتجارة أتاحت الحصول على المعادن والأخشاب وغيرها من المواد، كما ساعدت على تبادل المنتجات الزراعية والحرفية.

وفي القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، اتسعت حركة الاستيطان اليوناني خارج بحر إيجه، وظهرت مستوطنات يونانية في مناطق من جنوب إيطاليا وصقلية وسواحل البحر الأسود وشمال إفريقيا. ولم تكن هذه الحركة متطابقة في جميع المواقع؛ فقد ارتبطت أحيانًا بالبحث عن الأراضي والموارد، وأحيانًا بالتجارة والتنافس بين الجماعات، وبظروف سياسية واجتماعية محلية.

وسنعود إلى هذه المستوطنات لاحقًا بتفصيل مستقل، لأن انتشار المجتمعات اليونانية خارج موطنها الأصلي سيؤدي دورًا مهمًا في انتقال الثقافة واللغة والفنون، وفي نشوء علاقات مع شعوب مختلفة.

من المجتمع المحلي إلى العالم الذي وصفه هوميروس

في هذه البيئة المتغيرة، انتشرت التقاليد الشعرية التي حفظت قصص الأبطال والحروب والرحلات، وأشهرها الإلياذة والأوديسة المنسوبتان إلى هوميروس لا نعرف على وجه اليقين كيف تشكلت هاتان الملحمتان في صورتها الأولى، ولا نستطيع الجزم بأنهما نتاج شخص واحد بالمعنى الذي نفهمه اليوم. لكنهما تنتميان إلى تقليد شعري شفهي طويل، جرى تناقله وتطويره قبل أن تستقر نصوصهما في صور أقرب إلى التي وصلت إلينا.

وتجمع أشعارهما بين عناصر من عالم أقدم، وتقاليد اجتماعية ودينية، وصور وأفكار تعكس المراحل التي تطورت فيها القصائد. ولهذا لا يمكن التعامل معهما كسجل تاريخي مباشر للعصر الميسيني، كما لا يصح إهمالهما تمامًا عند دراسة الذاكرة اليونانية القديمة.

فهما شاهدان على الطريقة التي تخيل بها اليونانيون ماضيهم، وعلى القيم التي نسبوها إلى الأبطال والملوك، وعلى تصوراتهم عن الشرف والضيافة والحرب والموت والعلاقة بالآلهة.

وهنا سنحتاج لاحقًا إلى دراسة مستقلة للشعر الملحمي، ليس باعتباره أدبًا فقط، بل لأنه أصبح مصدرًا مهمًا لفهم الدين والخيال الاجتماعي والهوية الثقافية في العالم اليوناني.

السلطة والقانون والصراع على الحكم في اليونان القديمة

حين لم يعد النسب كافياً للحكم

لم تتطور المدن اليونانية جميعها بالطريقة نفسها، ولم تنتقل من الملكية إلى الديمقراطية في مسار واحد منتظم. ففي مدن كثيرة، تراجعت سلطة الملك أو اختفت، وانتقلت مقاليد الحكم إلى عائلات أرستقراطية امتلكت الأراضي والثروة والنفوذ الديني والعسكري. وكان الانتماء إلى أسرة عريقة يمنح صاحبه مكانة اجتماعية، لكنه كان يمنحه أيضاً فرصاً أكبر للوصول إلى المناصب والتحكم في القرارات. لم تكن الأرستقراطية تعني بالضرورة حكم الأكفأ أو الأعدل، مهما أوحى أصل الكلمة اليوناني بذلك؛ ففي الواقع، كانت السلطة كثيراً ما تبقى محصورة في عدد قليل من الأسر التي تتوارث النفوذ، وتتمسك بحقها في تفسير الأعراف والفصل في النزاعات. أما المزارع الصغير والحرفي والتاجر، فقد يساهم كل منهم في ازدهار المدينة والدفاع عنها، من دون أن يحصل بالضرورة على نصيب مماثل من السلطة السياسية.

ومع اتساع النشاط التجاري وتغير أحوال الزراعة والحرب، بدأت تظهر قوى جديدة لا تستمد مكانتها من النسب وحده. فقد أصبح بعض التجار والحرفيين أكثر ثراءً، وامتلك بعض المزارعين قدرة على شراء السلاح والمشاركة في القتال، ووجد رجال من خارج الدوائر الحاكمة أن بإمكانهم المطالبة بمكانة تتناسب مع ما يقدمونه للمدينة. لم يكن هذا التحول ثورة واحدة اجتاحت اليونان كلها، بل سلسلة من النزاعات والتجارب المختلفة، اختلفت نتائجها من مدينة إلى أخرى. لكنه فتح سؤلاً سيبقى حاضراً في التاريخ السياسي اليوناني هل يحق لفئة محدودة أن تحتكر الحكم لأنها وُلدت في أسر معينة، أم ينبغي أن يتغير توزيع السلطة مع تغير المجتمع؟

القانون المكتوب من ذاكرة الأقوياء إلى نص معلن

كان الاحتكام إلى الأعراف القديمة يمنح أصحاب النفوذ ميزة كبيرة؛ فحين لا تكون القواعد مكتوبة ومعلنة، يستطيع من يملك سلطة تفسيرها أن يؤثر في تطبيقها، وقد يصعب على الآخرين إثبات أن حكمًا ما خالف العرف المتبع.

لهذا اكتسب تدوين القوانين أهمية تتجاوز مجرد تسجيل قواعد موجودة. فعندما تُنقش القاعدة على لوح أو نصب في مكان عام، يصبح بالإمكان معرفة نصها والاحتجاج بها، وإن لم يكن ذلك يعني أن القانون أصبح عادلًا للجميع أو أن تطبيقه صار متساويًا تمامًا.

ومن أقدم الشواهد المهمة على التشريع المكتوب في العالم اليوناني نقش دريروس في جزيرة كريت، الذي يعود إلى القرن السابع قبل الميلاد. تناول هذا القانون صلاحيات مسؤول المدينة المعروف باسم كوسموس، ووضع قيودًا على توليه المنصب مرة أخرى خلال مدة محددة. وتكمن أهمية النقش في أنه لا يكفي بتنظيم سلوك الأفراد، بل يسعى أيضًا إلى ضبط سلطة المسؤول نفسه ومنع احتكار المنصب.

وهنا تظهر إحدى المشكلات التي واجهت المدن اليونانية المبكرة لم يكن السؤال مقتصرًا على تحديد من يحق له الحكم، بل شمل كذلك كيفية منع الحاكم من تحويل منصبه إلى ملكية خاصة أو استخدامه لإقصاء منافسيه.

ومع ذلك، ينبغي ألا نتخيل أن القوانين المكتوبة كانت دائمًا ثمرة مطالبة شعبية بالمساواة؛ فقد تكون بعض التشريعات قد صدرت أصلًا لتنظيم المنافسة بين النخب نفسها. كما أن كتابة القانون لم تُلغ الفوارق الاجتماعية، ولم تمنح النساء والأجانب والعبيد حقوق المواطنين السياسية.

دراكون في أثينا (عندما ارتبط القانون بالقسوة)

تقدم أثينا مثالاً واضحاً على الصراع بين سلطة الأسر النافذة والحاجة إلى قواعد أكثر وضوحاً. ففي أواخر القرن السابع قبل الميلاد، ارتبط اسم مشرع يُدعى دراكون بتدوين مجموعة من القوانين الأثينية، ويُورّخ ذلك عادةً بنحو عام ٦٢١ أو ٦٢٠ قبل الميلاد.

اشتهرت هذه القوانين في الذاكرة اللاحقة بقسوتها الشديدة، حتى ارتبط اسم دراكون بالقوانين المفرطة في العقوبة. لكن الصورة التاريخية تحتاج إلى شيء من الدقة فالتفاصيل الكاملة لتشريعاته لم تصل إلينا، والقانون الذي عُرف باستمراره في مراحل لاحقة هو تشريعه المتعلق بالقتل.

كانت أهمية هذا التشريع أنه ميّز بين صور مختلفة من القتل، بدل أن يترك التعامل مع الجريمة لانتقام عائلة القتيل وحده. وكان التمييز بين القتل المتعمد وغير المتعمد ذا أثر مهم، لأنه أتاح النظر إلى ظروف الفعل بدل التعامل مع كل حالة بالطريقة نفسها.

لم ينفذ ذلك الثأر والصراعات العائلية، ولم يحلّ مشكلات الفقر أو احتكار السلطة، لكنه ساهم في نقل جانب من النزاع من دائرة الانتقام الخاص إلى مجال القواعد والإجراءات المعترف بها في المدينة.

وهكذا، لم يكن تدوين القانون نهاية الصراع على العدالة، بل خطوة ضمن صراع أطول حول من يضع القواعد، ومن يفسرها، ومن يملك حق تنفيذها.

الطغاة حكام خارج النظام (لا صورة واحدة من الشر)

ظهر في عدد من المدن اليونانية حكام عُرفوا باسم الطغاة. والكلمة اليونانية القديمة التي اشتُق منها هذا المصطلح لم تكن تحمل منذ البداية المعنى السلبي الكامل الذي تحمله كلمة الطاغية في استعمالنا الحديث؛ فقد كانت تشير أساساً إلى شخص استولى على السلطة خارج الأطر السياسية المعتادة.

لم يكن كل حاكم حمل هذا اللقب متشابهاً مع الآخرين. فمنهم من اعتمد على القوة وحدها، ومنهم من كسب مؤيدين باستغلال السخط على الأسر الأرستقراطية، أو بتقديم نفسه حامياً لفئات لم تكن ممثلة في الحكم. وبعضهم رعى المباني العامة والاحتفالات والفنون، بينما استخدم آخرون العنف والإقصاء لتثبيت سلطانهم.

في كورنثوس، برز كيبسيلوس في القرن السابع قبل الميلاد، وأطاح بحكم أسرة الباخياد الأرستقراطية. ثم خلفه ابنه بيرياندر، الذي ارتبط عهده بازدهار نفوذ المدينة التجاري، وإن ظلت الروايات القديمة عن شخصيته وسياساته متفاوته، ولا يصح التعامل مع كل ما نُسب إليه بوصفه حقيقة مؤكدة.

وفي سيكيون، ارتبط اسم كليستينيس، الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد، بحكم طغياني وبسياسات دينية واحتفالية. أما في أثينا، فسيبرز لاحقاً بيسستراتوس، الذي تمكن من الاستيلاء على الحكم أكثر من مرة، قبل أن تستقر سلطته في المدينة.

لم تكن الطغيانية مرحلة إلزامية مرت بها كل مدينة يونانية، كما لم تؤدّ في كل مكان إلى النتيجة السياسية نفسها. ففي بعض المدن ساهمت في إضعاف

احتكار الأسر القديمة للسلطة، لكنها لم تمنح المواطنين بالضرورة حكمًا حرًا؛ إذ استُبدل نفوذ قلة من العائلات أحيانًا بنفوذ رجل واحد وأسرته.

ومع ذلك، فإن بعض هذه العهود ترك آثارًا ثقافية وعمرانية مهمة. فقد اهتم حكام بتوسيع المنشآت العامة، ورعاية الشعراء والفنانين، وتنظيم الاحتفالات الدينية التي جمعت أعدادًا أكبر من سكان المدينة. ولا يعني ذلك أن هذه الإنجازات تبرر الاستبداد، بل يوضح أن أثر الحكم لا يمكن فهمه من خلال وصف أخلاقي واحد، وأن المدينة قد تشهد ازدهارًا في بعض المجالات مع استمرار غياب المشاركة السياسية الواسعة.

من يقاتل دفاعًا عن المدينة؟

لم يكن التغير السياسي منفصلًا عن التغير العسكري. ففي عدد من المدن اليونانية، انتشر نمط من القتال يعتمد على المشاة المدرعين الذين يقاتلون في صفوف متقاربة، ويُعرفون باسم الهوبليت. حمل المقاتل عادة درعًا كبيرًا ورمحًا، إلى جانب تجهيزات تختلف باختلاف الفترة والقدرة المالية. اعتمد هذا الأسلوب على تماسك الصفوف أكثر من اعتماده على بطولة مقاتل منفرد. فإذا فتح أحد الجنود ثغرة في صفه، فقد يعرض رفاقه للخطر؛ لذلك كان الانضباط والتعاون عنصرين أساسيين في المعركة.

وكان تجهيز المقاتل يتطلب موارد مالية، ما جعل المشاركة في هذا النوع من القتال أسهل على من يستطيع شراء معداته. ومع انتشار طبقات من المزارعين وأصحاب الأملاك القادرين على التسليح، أصبح الدفاع عن المدينة مرتبطًا بفئات أوسع من الأسر الأرستقراطية التقليدية، وإن لم يكن ذلك متساويًا في جميع المدن أو الفترات.

ولا يمكن القول إن ظهور الهوليت أدى آلياً إلى الديمقراطية؛ فالعلاقة بين التغير العسكري والتحول السياسي ما تزال موضع نقاش بين الباحثين. لكن مشاركة عدد أكبر من المواطنين في الدفاع عن المدينة أضافت عنصراً جديداً إلى النقاش حول الواجب والحقوق إذا كان الرجل يتحمل كلفة السلاح ويخاطر بحياته لحماية الجماعة، فما موقعه من القرارات التي تحدد مصيره؟

لم تكن الإجابة واحدة. ففي بعض المدن ظل الحكم في يد قلة من المواطنين، وفي مدن أخرى نشأت ترتيبات سياسية أكثر اتساعاً مع مرور الزمن. أما النساء والعبيد والأجانب المقيمون، فلم تمنحهم المشاركة في اقتصاد المدينة أو وجودهم داخلها حقاً مماثلاً في اتخاذ القرار.

وهنا تتضح مفارقة مهمة في التاريخ اليوناني فقد نشأت داخل بعض المدن تجارب لافتة في مشاركة المواطنين في الحكم، لكنها قامت في الوقت نفسه على حدود صارمة تحدد من يُعدّ مواطناً ومن يُستبعد من هذه الصفة.

إسبرطة مدينة صنعت مجتمعا حول الحرب

دولة لا تشبه جاراتها

في جنوب اليونان، ضمن إقليم لاكونيا في شبه جزيرة البيلوبونيز، نشأت إسبرطة، إحدى أكثر المدن اليونانية تميزاً في نظامها الاجتماعي والسياسي والعسكري. لم تكن إسبرطة مجرد مدينة اشتهر رجالها بالقتال، بل مجتمعاً أعاد تنظيم جوانب واسعة من الحياة حول الحفاظ على نظامه الداخلي وضمان تفوق فئة المواطنين المحاربين. ومع أن صورتها الشائعة ترتبط بالانضباط العسكري وحده، فإن فهم إسبرطة يتطلب النظر إلى ما جعل هذا النظام ممكناً الأراضي الزراعية، والفئات التي عملت فيها، والحقوق المحدودة التي تمتع

بها المواطنون، والخوف المستمر من تمرد السكان الخاضعين لسيطرتها تقع إسبرطة في وادي نهر يوروتاس، وتحيط بها مرتفعات تجعل الوصول إليها أصعب من الوصول إلى كثير من المدن الساحلية. ولم تتحول إلى قوة بحرية تجارية من الطراز الذي عرفته مدن أخرى، بل ارتبط نفوذها أساسًا بالسيطرة على أراضي لاكونيا، ثم التوسع في إقليم ميسينيا المجاور.

وقد ترك هذا التوسع أثرًا عميقًا في طبيعة المجتمع الإسبرطي؛ إذ حصلت المدينة على أراضٍ زراعية واسعة، لكنها أخضعت أيضًا جماعات كبيرة من السكان، وأصبح الحفاظ على السيطرة عليهم جزءًا أساسيًا من حساباتها السياسية والعسكرية.

الهيلوت من كان يطعم المحاربين؟

لا يمكن فهم إسبرطة من دون التوقف عند الهيلوت، وهي تسمية أُطلقت على جماعات من السكان الخاضعين لسيطرة الإسبرطيين، ولا سيما في لاكونيا وميسينيا. لم يكونوا عبيدًا منزليين بالمعنى نفسه الذي نجده في أسواق العبيد بمدن يونانية أخرى، كما لم يكونوا مواطنين أحرارًا يملكون تقرير مصيرهم؛ بل كانوا مرتبطين بالأرض ويؤدون أعمالًا زراعية وفروضًا مفروضة عليهم لصالح الفئة الإسبرطية الحاكمة.

أتاحت هذه البنية لعدد من المواطنين الإسبرطيين التفريغ للتدريب العسكري والمشاركة في الشؤون العامة، لأن جزءًا كبيرًا من الإنتاج الزراعي كان يأتي من عمل الهيلوت. لكن النظام حمل في داخله نقطة ضعف خطيرة فالمجتمع الذي يعتمد على جماعة واسعة محرومة من الحرية يحتاج باستمرار إلى ضمان خضوعها.

كانت الثورات والاضطرابات مصدر قلق حقيقي لإسبرطة، خصوصًا في ميسينيا. وبعد الزلزال الكبير الذي ضرب المنطقة في القرن الخامس قبل الميلاد، اندلعت ثورة للهيلوت، واستمرت المواجهات سنوات. وتكشف هذه الأحداث أن قوة إسبرطة العسكرية لم تكن موجهة إلى الخارج وحده؛ فقد كان عليها أيضًا أن تحسب حساب الصراع داخل أراضيها.

ولا بد من الحذر عند قراءة الروايات القديمة عن معاملة الهيلوت، لأن بعض التفاصيل وصلتنا عبر مؤلفين عاشوا في فترات لاحقة أو كانت لهم مواقف خاصة من إسبرطة. لكن الصورة العامة واضحة قام النظام الإسبرطي على تفاوت شديد في الحقوق، وكان إخضاع الهيلوت أحد الشروط الاقتصادية والاجتماعية التي استند إليها تفرغ المواطنين للحياة العسكرية.

المواطن الإسبرطي حياة منظمة منذ الطفولة

ارتبطت المواطنة الإسبرطية الكاملة، خصوصًا في صورتها التقليدية، بالانتماء إلى جماعة محدودة من الرجال الأحرار الذين خضعوا لنظام تربية وتدريب جماعي. ولم يكن مجرد الميلاد في إسبرطة كافيًا دائمًا لضمان الاحتفاظ بهذه المكانة؛ فقد ارتبطت المواطنة أيضًا بالقدرة على استيفاء التزامات الجماعة، ومنها المساهمة في الولائم الجماعية المعروفة باسم السّيتيا.

كان النظام التربوي الذي عُرف باسم الأغوغي يهدف إلى إعداد الفتیان لتحمل المشقة، والطاعة، والتعاون مع رفاقهم، والاستعداد للقتال. وتصف المصادر القديمة انتقال الفتیان إلى مراحل من التدريب الجماعي بعيدًا عن نمط الحياة المنزلية المعتاد، لكن تفاصيل هذا النظام تغيرت عبر الزمن، ولا يصح افتراض أن كل ما وصفه مؤلف متأخر كان مطبقًا بالصورة نفسها في جميع

العصور. لم يكن التدريب بدنيًا فقط؛ فقد احتل الانضباط والسلوك العام ومكانة الفرد داخل جماعته أهمية كبيرة. وكان المواطن الإسبرطي يُتوقع منه أن يضع التزاماته تجاه الجماعة فوق كثير من رغباته الشخصية، وأن يحافظ على صورة من الصلابة والشجاعة.

لكن هذه التربية لم تكن دليلًا على أن جميع الإسبرطيين عاشوا بالطريقة نفسها أو أنهم لم يعرفوا الحياة الخاصة والعائلية. إنما كانت هناك منظومة اجتماعية جعلت الاستعداد العسكري قيمة مركزية، وربطت مكانة المواطن بأدائه لواجبات محددة داخل المجتمع.

كما أن النظام لم يكن متاحًا للجميع؛ فالفتيان الذين لم يستوفوا الشروط اللازمة للمواطنة الكاملة لم يتمتعوا بالضرورة بالمكانة نفسها التي تمتع بها أفراد الطبقة الحاكمة. وهكذا، لم تكن إسبرطة مجتمعًا عسكريًا متساويًا، بل مجتمعًا شديد التراتبية، حتى بين السكان الأحرار أنفسهم.

النساء في إسبرطة مساحة أوسع، ولكن ليس حكمًا متساويًا

احتلت النساء الإسبرطيات موقعًا مختلفًا عن موقع كثير من النساء في المدن اليونانية الأخرى، وخصوصًا في أثينا خلال فترات معينة. فقد أشار كتاب قدماء إلى أن الفتيات في إسبرطة مارسن تدريبات بدنية، وأن النساء استطعن امتلاك الأراضي وإدارتها بدرجة لافتة مقارنة بما عُرف في مجتمعات يونانية أخرى. كانت لهذه الممارسات صلة بطبيعة المجتمع الإسبرطي. فغياب الرجال المتكرر بسبب التدريب والحملات العسكرية جعل إدارة الممتلكات والأعمال المنزلية والاقتصادية مسؤولية مهمة، وأتاح للنساء من الأسر الإسبرطية امتلاك قدر من الاستقلال العملي.

كما ربطت بعض التصورات الإسبرطية بين قوة النساء البدنية وصحة الأبناء الذين يُنتظر منهم أن يصبحوا محاربين. ولهذا شجعت التقاليد المحلية على النشاط البدني للفتيات، وإن كانت المصادر لا تسمح لنا بإعادة بناء تفاصيل حياتهن اليومية بدقة كاملة في كل مرحلة تاريخية.

ومع ذلك، لا ينبغي الخلط بين امتلاك النساء ممتلكات أو تمتعهن بقدر أكبر من الحركة وبين المساواة السياسية الحديثة. لم تشارك النساء في المؤسسات السياسية الإسبرطية على قدم المساواة مع المواطنين الرجال، ولم يكن امتيازهن الاجتماعي متاحًا بالدرجة نفسها للنساء من الفئات الخاضعة أو الفقيرة.

إن خصوصية وضع المرأة الإسبرطية تكشف جانبًا مهمًا من اختلاف المدن اليونانية بعضها عن بعض لم تكن هناك تجربة اجتماعية واحدة يمكن تعميمها على جميع النساء في العالم اليوناني، بل تفاوتت مواقعهن وفقًا للقوانين والاقتصاد ونظام الأسرة وطبيعة السلطة في كل مدينة.

ملكان ومجلس وشعب محدود الحقوق

تميز النظام السياسي الإسبرطي بوجود ملكين في الوقت نفسه، ينتميان إلى سلالتين ملكيتين مختلفتين. وقد ارتبطت بالملكين وظائف دينية وعسكرية مهمة، وخصوصًا قيادة الحملات في ظروف معينة، لكن سلطتهما لم تكن مطلقة. إلى جانب الملكية، وُجد مجلس الشيوخ الإسبرطي، المعروف باسم الجيروسيا، ويتألف تقليديًا من ثمانية وعشرين عضوًا تجاوزوا سنًا محددة، إضافة إلى الملكين. وكان للمجلس دور مهم في إعداد المقترحات والنظر في القضايا الكبرى.

أما الإفور، وهم خمسة مسؤولين يُختارون سنوياً، فقد امتلكوا نفوذاً واسعاً في إدارة شؤون المدينة ومراقبة سلوك المسؤولين، وكان بإمكانهم الحد من تصرفات الملكين ضمن ترتيبات النظام الإسبرطي. وقد ساعد تعدد المؤسسات على منع انفراد شخص واحد بكل السلطات، وإن لم يجعل النظام ديمقراطياً بالمعنى الذي عرفته أثينا في مراحل لاحقة.

وكانت هناك أيضاً جمعية للمواطنين الإسبرطيين، لكن المشاركة فيها اقتصرت على فئة محددة من الرجال الذين تمتعوا بالمواطنة. ولم يكن الهيلوت أو النساء أو الأجانب المقيمون يملكون الحقوق السياسية نفسها.

وينسب إلى المشرّع الأسطوري ليكورغوس وضع أسس النظام الإسبرطي، لكن وجوده التاريخي وتفاصيل الإصلاحات المنسوبة إليه موضع نقاش؛ فالمصادر التي تروي قصته دُوّنت بعد الزمن المفترض لحياته بمدة طويلة، واختلطت فيها التقاليد السياسية بالروايات الأخلاقية.

لذلك لا يمكن التعامل مع نظام إسبرطة كما لو أنه وُضع دفعة واحدة على يد مشرّع واحد، ثم بقي ثابتاً بلا تغيير. الأرجح أن مؤسسات المدينة وتقاليدها تشكلت عبر مراحل طويلة، ثم أعادت الأجيال اللاحقة تفسيرها وتقديمها بوصفها نظاماً قديماً متماسكاً.

هل كانت إسبرطة مدينة بلا فنون وتجارة؟

غالباً ما تُصوّر إسبرطة على أنها مدينة لا تهتم إلا بالحرب، لكن هذا التصوير مبالغ فيه. فقد عرفت المدينة وإقليمها إنتاجاً فنياً وحرفياً، وظهرت فيهما أعمال برونزية وخزفية، كما شهدت إسبرطة في مراحل أقدم نشاطاً شعرياً وموسيقياً، وارتبطت بتقاليد احتفالية ودينية خاصة.

غير أن طبيعة المجتمع الإسبرطي والقيود التي أحاطت بحياة المواطنين، إلى جانب ظروفها السياسية والعسكرية، جعلت مسارها الثقافي مختلفاً عن مسار أثينا، التي ستشتهر لاحقاً بالمسرح والفلسفة والجدل السياسي.

ولا يعني اختلاف المسارين أن إسبرطة كانت معزولة تماماً عن بقية العالم اليوناني. فقد شاركت في شبكات التحالف والصراع، وتأثرت بالتبادل مع مدن أخرى، وكان لها دور بارز في المهرجانات الدينية المشتركة التي جمعت اليونانيين رغم انقسامهم السياسي.

إن الصورة الأدق لإسبرطة ليست صورة مدينة رفضت كل ما عدا الحرب، بل صورة مجتمع أعطى الأولوية للحفاظ على نظامه العسكري والاجتماعي، وقبل مقابل ذلك بقيود صارمة على حياة المواطنين وبنظام تفاوتت فيه الحقوق تفاوتاً عميقاً.

أثينا من أزمة الديون إلى ولادة الديمقراطية

مدينة تختنق تحت سلطة الأغنياء

في أواخر القرن السابع وبدايات القرن السادس قبل الميلاد، واجهت أثينا أزمة لم تكن عسكرية في المقام الأول، بل اجتماعية واقتصادية. فقد تركزت مساحات واسعة من الأراضي في أيدي أسر نافذة، بينما عانى كثير من صغار المزارعين من الديون التي أثقلت كاهلهم، وهددت بفقدان أراضيهم وحريتهم.

كان بعض المزارعين يزرعون أرضاً لا يملكونها بالكامل، ويؤدون جزءاً من إنتاجهم إلى أصحاب النفوذ. وإذا عجز أحدهم عن الوفاء بالتزاماته، فقد يجد نفسه معرضاً للاستعباد بسبب الدين، بل إن بعض الأثينيين انتهى بهم الأمر إلى البيع خارج مدينتهم. وهكذا لم تكن الديون مجرد أرقام في حسابات التجار

والمزارعين؛ فقد أصبحت مسألة تمس الحرية الشخصية ومكانة الأسرة ومستقبل الأبناء. في الوقت نفسه، لم تكن الفئات الفقيرة تمتلك نفوذًا سياسيًا يوازي ما تعانيه. فقد ظلت المناصب المهمة خاضعة إلى حد كبير لشروط النسب والثروة، بينما تزايد الاستياء من نظام يمنح الأسر الثرية قدرة على التحكم في الأرض والقانون والحكم.

لم تكن أثينا على وشك الانهيار بسبب الفقر وحده، لكن اجتماع الأزمة الاقتصادية مع احتكار السلطة خلق خطرًا حقيقيًا من اندلاع صراع داخلي. واحتاجت المدينة إلى شخصية تستطيع التفاوض بين الأطراف المتنازعة، من دون أن تتحول التسوية إلى انتصار كامل لفئة على حساب الأخرى.

برز في هذه الظروف اسم سولون، الذي اختير لتولي مسؤولية الإصلاح في نحو عام ٥٩٤ أو ٥٩٣ قبل الميلاد. ولم يكن اختياره يعني أن الأثينيين اتفقوا على برنامج واحد؛ بل كان محاولة لإيقاف أزمة تهدد بتفكيك المجتمع من الداخل.

سولون الرجل الذي رفض أن يصبح طاغية

كان سولون رجلًا ذا مكانة وسمعة، وعُرف أيضًا بالشعر، وقد استخدم الشعر للتعبير عن موقفه من الصراع الاجتماعي والسياسي. وتُعد بعض الأبيات المنسوبة إليه من الشواهد المهمة على رؤيته للإصلاح، وإن كانت القصائد التي وصلت إلينا لا تقدم سجلًا كاملًا لكل ما فعله.

لم يتبنَّ سولون مطالب الفقراء جميعها، ولم يوافق الأغنياء على إصلاحاته جميعها. فقد حاول بناء تسوية تحفظ المدينة من الصراع، مع تقليص بعض أشكال الاستغلال وإعادة تنظيم المشاركة السياسية.

ومن أبرز إصلاحاته إجراء عُرف باسم سيساختيا، ويمكن ترجمة معناه تقريبًا إلى إزالة الأعباء. ارتبط هذا الإجراء بتخفيف عبء الديون، وإلغاء الديون التي شملها الإصلاح، ومنع تقديم الشخص نفسه ضمانًا للقرض على نحو قد يؤدي إلى استعباده.

وتذكر المصادر القديمة أن سولون أزال علامات كانت تُثبت حقوقًا أو مطالبات على بعض الأراضي، وأعاد إلى أثينا أشخاصًا بيعوا أو غادروا بسبب الديون. لكن التفاصيل الدقيقة لنطاق إلغاء الديون موضع نقاش بين الباحثين، ولا ينبغي افتراض أن كل أشكال الالتزام المالي ألغيت بالطريقة نفسها.

كان الإصلاح كبيرًا لأنه وضع حدًا لمسار يمكن أن يحوّل المواطن الفقير إلى عبد بسبب عجزه المالي. لكنه لم يوزع الأراضي بالتساوي، ولم يمهّد الفوارق بين الأغنياء والفقراء. ولهذا لم يحصل سولون على رضا جميع الأطراف فقد رأى بعض الفقراء أن إصلاحاته لم تذهب بعيدًا بما يكفي، بينما شعر بعض أصحاب الثروة أنهم فقدوا امتيازات كانوا يعدّونها حقوقًا راسخة.

وتنسب إلى سولون أيضًا إصلاحات في القانون وتنظيم مؤسسات الحكم. لكن أهم ما يميزه ليس أنه أنشأ ديمقراطية مكتملة، بل أنه ساعد في تغيير الأسس التي تُنظم بها الحياة السياسية، وفتح المجال أمام فئات من المواطنين للمشاركة وفق شروط تختلف عن النظام السابق.

هل أصبح الأثينيون متساوين بعد إصلاحات سولون؟

قسّم سولون المواطنين الذكور إلى أربع فئات بحسب مقدار ما يمتلكونه من إنتاج أو ثروة، لا بحسب النسب وحده. وأثر هذا التصنيف في المناصب التي يمكن لكل فئة الوصول إليها وفي مقدار مشاركتها في الحكم.

كان أصحاب الثروة الأعلى أقدر على تولي المناصب الكبرى، بينما بقيت الفئات الأقل ثراءً محدودة النفوذ في بعض المؤسسات. ومع ذلك، مثل ربط بعض الحقوق بالثروة بدل الاقتصار على الأصل العائلي تحولاً مهماً؛ فقد أصبح المال والإنتاج الاقتصادي عاملين معنيين في تحديد المكانة السياسية.

كما ارتبطت إصلاحاته بتعزيز دور المحاكم وإتاحة الاعتراض على بعض الأحكام. وتذكر المصادر القديمة أن المواطن كان يستطيع في ظروف معينة المطالبة بالإنصاف لشخص تعرض للظلم، حتى لو لم تكن القضية تخصه مباشرة. وقد أتاح ذلك تصورًا أوسع للمسؤولية العامة عن العدالة، بدل اعتبار النزاع شأنًا خاصًا لا يعني إلا أطرافه.

لكن علينا ألا نسقط على هذه الإصلاحات مفهوم المواطنة الحديثة. فلم تكن جميع الفئات المقيمة في أثينا متساوية أمام المؤسسات السياسية؛ إذ بقيت النساء خارج المشاركة الرسمية في الحكم، ولم يحصل العبيد أو الأجانب المقيمون على حقوق المواطنين نفسها.

كذلك لم يكن نظام سولون حلًا نهائيًا للأزمة. فالإصلاح القانوني لا يزيل تلقائيًا التنافس بين الأسر النافذة، ولا يمحو التفاوت الاقتصادي، ولا يمنع السياسيين من استغلال غضب الناس للوصول إلى السلطة.

بعد مغادرة سولون الحياة السياسية المباشرة، استمرت الانقسامات في أثينا. وتنافست جماعات ارتبطت بمناطق مختلفة من أتيكا (إقليم أو أشباه الجزر المتكاملة التي تحضن أثينا وغيرها من المدن) وبمصالح اقتصادية واجتماعية متباينة. وهنا ظهر رجل سيستفيد من هذه الانقسامات ليصل إلى الحكم بيسستراتوس.

بيسستراتوس الحاكم الذي استند إلى دعم العامة

في منتصف القرن السادس قبل الميلاد تقريبًا، تمكن بيسستراتوس من فرض سلطته على أثينا بعد محاولات متكررة. وتصفه المصادر القديمة بأنه استغل موقعه قائدًا عسكريًا وشخصية سياسية تحظى بتأييد فئات من السكان، ثم استولى على الحكم خارج الترتيبات المعتادة. لم تكن سيطرته مستقرة منذ البداية؛ فقد فقد السلطة وعاد إليها أكثر من مرة، قبل أن يثبت حكمه ويستمر حتى وفاته نحو عام ٥٢٧ قبل الميلاد. ثم خلفه ابنه هيبياس وهيبارخوس، ودخلت أثينا في مرحلة جديدة من تاريخها السياسي.

ومن المهم التمييز بين الطغيان في السياق اليوناني القديم والاستعمال الحديث للكلمة. فقد كان بيسستراتوس حاكمًا استولى على السلطة خارج النظام السياسي المعتاد، لكنه لم يلغ جميع مؤسسات المدينة، بل أبقى كثيرًا منها قائمًا، مع ضمان وجود أنصاره في مواقع مؤثرة. وتنسب المصادر إلى عهده أعمالًا ساهمت في تطوير أثينا، منها دعم بعض المنشآت العامة والاحتفالات الدينية، وتشجيع النشاط الاقتصادي. كما ارتبطت فترته بتعزيز مكانة بعض الشعائر والمهرجانات التي ساعدت في إبراز هوية المدينة. لكن ازدهار بعض جوانب الحياة لا يعني أن الحكم أصبح قائمًا على مشاركة سياسية حرة. فقد ظل مركز القرار في يد الحاكم وشبكته من المؤيدين، ولم تتحول أثينا في عهده إلى ديمقراطية. تكمن أهمية مرحلة بيسستراتوس في أنها تكشف أن التحول السياسي لا يسير في خط مستقيم من الاستبداد إلى الحرية. فقد تبقى بعض الإصلاحات أو المؤسسات قائمة في ظل حاكم قوي، بينما تظل السلطة الفعلية مركزة في يده. وقد تستفيد المدينة اقتصاديًا أو ثقافيًا من بعض سياساته، من دون أن يصبح مواطنوها أصحاب القرار النهائي.

من سقوط الطغيان إلى صراع جديد على السلطة

بعد وفاة بيسستراتوس، تولى ابنه الحكم. لكن نظامهما لم يستمر بالصورة التي عرفها عهد أبيهما. ففي عام ٥١٤ قبل الميلاد، قُتل هيبارخوس على يد هارموديوس وأريستوجيتون في حادثة ارتببت بصراعات شخصية وسياسية

احتلت الحادثة مكانة بارزة في الذاكرة الأثينية اللاحقة، وأصبح الرجلان يُحتفى بهما بوصفهما قاتلين للطغيان. غير أن الروايات القديمة تربط الحادثة أيضًا بدوافع شخصية، ولذلك لا يصح اختزالها في صورة ثورة سياسية منظمة هدفها المباشر إقامة الديمقراطية.

استمر هيبياس في الحكم بعد مقتل أخيه، لكن سلطته ازدادت تشددًا وفق الروايات القديمة. وفي عام ٥١٠ قبل الميلاد، أُطيح به بمساعدة تدخل إسبرطي، فغادر أثينا.

لم يؤدّ سقوطه إلى قيام الديمقراطية فورًا. فقد دخلت المدينة مرحلة تنافس بين شخصيات وأسر أرادت تحديد شكل النظام الجديد. وكان من أبرز المتنافسين إيساغوراس وكليستينيس، الذي ينتمي إلى أسرة الكمايونيد ذات النفوذ القديم. كان كليستينيس أرستقراطيًا من حيث النسب، لكنه اعتمد في صراعه السياسي على توسيع قاعدة تأييده بين المواطنين. وبعد مواجهة مع إيساغوراس، وتدخل إسبرطي في الأحداث، تمكن من العودة إلى أثينا وطرح إصلاحات غيرت تنظيم الحياة السياسية. وهنا بدأت مرحلة حاسمة لم يعد السؤال فقط من سيحكم أثينا، بل كيف يمكن إعادة تنظيم المجتمع السياسي نفسه بحيث يصعب على أسرة واحدة أو مجموعة محدودة من الأسر أن تحتكر النفوذ.

كليستينيس إعادة بناء الجماعة السياسية

نحو عام ٥٠٨ أو ٥٠٧ قبل الميلاد، أدخل كليستينيس إصلاحات أعادت تنظيم المواطنين الأثينيين ضمن تقسيمات جديدة. ولم تكن هذه التغييرات مجرد تبديل أسماء أو حدود إدارية، بل استهدفت إضعاف شبكات النفوذ القديمة التي اعتمدت على القرابة والمنطقة والمصالح المحلية.

كان الأثينيون ينتمون إلى وحدات محلية تُعرف باسم الديمات، وهي تجمعات سكانية وإدارية. وأصبحت هذه الوحدات أساساً مهماً لتسجيل المواطنين وتنظيم انتمائهم السياسي.

كما أعاد كليستينيس تنظيم القبائل الأثينية، فأنشأ عشر قبائل بدلاً من النظام السابق القائم على أربع قبائل تقليدية. وتكوّنت القبائل الجديدة بطريقة جمعت سكاناً من مناطق مختلفة من أتيكا، بما في ذلك المناطق الساحلية والداخلية والحضرية، بدل أن تظل كل مجموعة سياسية مرتبطة بسهولة بمنطقة واحدة وشبكة نفوذ واحدة.

كان لهذا الترتيب أثر مهم؛ إذ صعب على الزعماء المحليين تحويل الروابط الإقليمية وحدها إلى قاعدة مستقرة للسيطرة على المدينة كلها. وأصبح المواطنون يشاركون في مؤسسات مشتركة تجمع أشخاصاً من خلفيات ومناطق متباينة. وأنشأ النظام الجديد مجلساً من خمسمئة عضو، يُعرف باسم مجلس الخمسمئة، يضم خمسين عضواً من كل القبائل. وكان المجلس يؤدي دوراً أساسياً في إعداد الأعمال التي تُعرض على الجمعية وتنظيم شؤون الحكم اليومية. لم تكن هذه الإصلاحات اختفاء نفوذ الأغنياء أو الأرستقراطيين، ولم تجعل جميع سكان أتيكا مواطنين متساوين. لكنها أعادت

رسم حدود المشاركة السياسية بين المواطنين الذكور، وأضعفت بعض الأسس التقليدية التي كان النفوذ الوراثي يستند إليها.

ومن الإصلاحات المرتبطة بهذه المرحلة أيضًا قانون النفي السياسي المعروف باسم الأوستراكية، الذي أتاح إبعاد شخصية يُخشى أن تستولي على السلطة أو تهدد النظام السياسي. وكان الإجراء يعتمد على تصويت المواطنين، وتُكتب فيه أسماء الأشخاص على قطع فخارية مكسورة تُعرف باسم أوستراكا. ولم يكن هذا النفي حكمًا جنائيًا بالضرورة، بل أداة سياسية وقائية، استُخدمت في مراحل لاحقة من تاريخ أثينا.

هل وُلدت الديمقراطية الأثينية في يوم واحد؟

غالبًا ما يُقدّم كليستينيس بوصفه أحد مؤسسي الديمقراطية الأثينية، لكن من الأدق أن نفهم إصلاحاته بوصفها مرحلة تأسيسية ضمن تطور طويل. فقد مهدت لتوسيع المشاركة السياسية، لكنها لم تنشئ كل المؤسسات التي عُرفت لاحقًا في الديمقراطية الأثينية، ولم تضمن أن تبقى السلطة موزعة بالتساوي في جميع الظروف.

كما أن كلمة الديمقراطية لا ينبغي أن تخذعنا إذا فهمناها بمعنى حكم جميع السكان. فقد كان المقصود مشاركة المواطنين الذكور الذين استوفوا شروط المواطنة، بينما بقيت النساء والعبيد والأجانب المقيمون خارج هذه المشاركة الرسمية. ومع ذلك، كان التحول مهمًا في سياق العالم القديم. فقد أصبحت الجمعية السياسية، ومجلس الخمسة، والمؤسسات القضائية، عناصر في نظام أخذ يمنح المواطنين دورًا أوسع في القرارات العامة. ولم يعد الوصول إلى السلطة محصورًا بالطريقة نفسها في الأسر الأرستقراطية التي ورثت نفوذها عبر الأجيال.

وهكذا، لم تظهر الديمقراطية الأثينية نتيجة فكرة فلسفية مجردة وحدها، بل خرجت من صراعات واقعية حول الأرض والديون والقانون والهوية السياسية وتوزيع السلطة. لقد ساهمت الأزمات الاقتصادية، وإصلاحات سولون، وتجربة الطغيان، ثم إعادة تنظيم المجتمع على يد كليستينيس، في تشكيل الطريق الذي سلكته أثينا.

لكن هذا الطريق لم يكن نهاية التاريخ السياسي للمدينة؛ فالتجربة التي نشأت في أواخر القرن السادس قبل الميلاد ستتغير مجددًا مع الحروب، وتوسع النفوذ الأثيني، وصعود قادة جدد، والصراع بين المشاركة الشعبية ومصالح أصحاب الثروة والقوة العسكرية.

حين واجهت المدن اليونانية إمبراطورية فارس

الثورة التي أشعلت الصراع

لم تكن المدن اليونانية المنتشرة على الساحل الغربي لآسيا الصغرى تعيش بمعزل عن الإمبراطوريات الكبرى. فقد وقعت مدن يونانية كثيرة في أيونيا، وهي منطقة ساحلية تقع في غرب الأناضول، تحت الحكم الفارسي بعد توسع الإمبراطورية الأخمينية في القرن السادس قبل الميلاد.

احتفظت بعض هذه المدن بقدر من شؤونها المحلية، لكن وجودها تحت سلطة ملك فارسي كان يعني أن استقلالها السياسي لم يكن كاملاً. كما ارتبطت علاقاتها بالقوى المحيطة بها بحسابات الإمبراطورية ومصالح حكامها.

في عام ٤٩٩ ء قبل الميلاد تقريبًا، اندلعت ثورة في المدن الأيونية ضد الحكم الفارسي. لم تكن الثورة حركة موحدة تمامًا، ولم تتفق جميع المدن على

أهداف واحدة، لكنها سرعان ما تحولت إلى مواجهة أوسع عندما تلقت دعماً من أثينا وإريتريا، وهما مدينتان يونانيتان تقعان غرب بحر إيجه.

شارك أثينيون في حملة وصلت إلى سارد، أحد المراكز الإدارية المهمة في الإمبراطورية الفارسية، وأُحرقت أجزاء من المدينة. أثار ذلك غضب الملك داريوس الأول، الذي رأى في تدخل أثينا تحدياً لمصالحه وسلطته.

أُخمدت الثورة الأيونية في نهاية المطاف، وسقطت ميليتوس، إحدى أبرز مدنها، عام ٤٩٤ قبل الميلاد. لكن انتهاء الثورة لم يمهّد الصراع؛ فقد أصبحت أثينا وإريتريا ضمن أهداف حملة فارسية لاحقة. وهنا بدأت المواجهة التي ستجعل بحر إيجه ومصير المدن اليونانية جزءاً من صراع أكبر بين عالم المدن المستقلة وإمبراطورية تمتد أراضيها عبر مناطق واسعة من آسيا.

ماراثون معركة لم تكن نتيجتها محسومة

في عام ٤٩٠ قبل الميلاد، أرسل داريوس الأول حملة عسكرية عبر بحر إيجه، بقيادة داتيس وأرتافرنيس، وكان من بين أهدافها معاقبة أثينا وإريتريا، وإعادة هيبياس، الحاكم الأثيني السابق الذي كان يعيش في المنفى، إلى السلطة. استولت القوات الفارسية على إريتريا بعد حصار، ثم وصلت إلى سهل ماراثون في أتيكا، شمال شرقي أثينا. كان اختيار الموقع مهماً، إذ أتاح للقوات الفارسية النزول على الساحل والتحرك في منطقة تسمح باستخدام قواتها، بما فيها الفرسان. واجه الأثينيون الخطر بجيش من المشاة المدرعين، وانضمت إليهم قوة من مدينة بلاتايا. وكان القائد ميلتياديس من أبرز الشخصيات التي دعت إلى مواجهة الفرس في الميدان بدل الاكتفاء بالانتظار خلف دفاعات المدينة.

وقعت معركة ماراثون عام ٤٩٠ قبل الميلاد، وانتهت بانتصار الأثينيين وحلفائهم. ولم يكن الانتصار مجرد نتيجة لاندفاع المحاربين أو تفوقهم العددي؛ فقد أدت طبيعة الأرض وتماسك المشاة وطريقة توزيع القوات دوراً في المعركة، وإن كانت التفاصيل الدقيقة للتكتيكات والأعداد موضع نقاش بسبب محدودية المصادر القديمة.

تكمُن أهمية ماراثون في أنها أظهرت أن الجيش الفارسي، على الرغم من اتساع الإمبراطورية التي ينتمي إليها، لم يكن قادراً على حسم كل مواجهة بسهولة. كما عزز الانتصار ثقة الأثينيين بقدرتهم على الدفاع عن مدينتهم، وترك أثراً عميقاً في ذاكرتهم الجماعية.

لكن من الخطأ تصور المعركة بوصفها نهاية الخطر الفارسي. فقد بقيت الإمبراطورية قوية، ولم يكن فشل حملة داريوس كافياً لإزالة أسباب الصراع. وبعد وفاته، ورث ابنه خشايارشا الأول العرش، ودخلت المواجهة مرحلة أكثر اتساعاً.

ثيميستوكليس الرهان على البحر

لم يكن جميع الأثينيين متفقين على كيفية حماية المدينة من خطر عودة الفرس. فقد كان هناك من رأى أن تقوية القوات البرية ضرورية، بينما أدرك ثيميستوكليس، وهو رجل سياسي أثيني بارز، أن مستقبل أثينا قد يتوقف على امتلاك قوة بحرية كبيرة. ساعد اكتشاف عروق فضة غنية في منطقة لوريون، جنوب أتيكا، على توفير موارد مالية مهمة للمدينة. وتروي المصادر القديمة أن ثيميستوكليس أقنع الأثينيين بتوجيه عائدات من هذه الثروة إلى بناء سفن حربية بدل توزيع الأموال على المواطنين.

كانت السفن التي اعتمدت عليها أثينا من طراز الترايريم، وهي سفن حربية طويلة نسبيًا، تعمل أساسًا بقوة المجاديف، وتضم عادة ثلاثة مستويات من المجدفين على كل جانب. وقد صُممت لتتحرك بسرعة وتناور في البحر، وتستخدم مقدمتها المدببة المصنوعة أو المعززة بالبرونز لصدم سفن العدو.

لم يكن بناء السفن كافيًا وحده؛ إذ احتاجت أثينا إلى أعداد كبيرة من المجدفين، وإلى تنظيم الأسطول وتدريبه، وإلى موانئ تستطيع استيعاب السفن وإصلاحها وتجهيزها. وقد أصبحت منطقة بيرايوس، التي ستغدو لاحقًا الميناء الرئيسي لأثينا، جزءًا أساسيًا من تطور قوتها البحرية.

كان لهذا القرار أثر سياسي أيضًا. فقد أتاحت السفن مشاركة أعداد كبيرة من الرجال الذين لم يكونوا من أصحاب الثروات التي تسمح لهم بشراء تجهيزات المشاة المدرعين. وكان كثير من المجدفين من الفئات الأقل ثراءً، وأصبح دورهم في الدفاع عن المدينة واضحًا بصورة متزايدة.

لا يعني ذلك أن بناء الأسطول أنشأ الديمقراطية بمفرده، فقد كانت أثينا قد بدأت تحولاتها السياسية قبل ذلك بسنوات. لكنه عزز أهمية الفئات التي قدمت القوة البشرية اللازمة لتشغيل الأسطول، وساهم في البيئة التي تطورت فيها المشاركة السياسية لاحقًا.

خشايارشا يعبر إلى أوروبا

بعد سنوات من الاستعداد، أطلق خشايارشا الأول حملة واسعة ضد اليونان عام ٤٨٠ قبل الميلاد. وقد استندت الحملة إلى موارد إمبراطورية ضخمة، وشملت قوات جاءت من مناطق متعددة خاضعة للحكم الفارسي أو مرتبطة به تصف المصادر القديمة عبور الجيش الفارسي إلى أوروبا عبر مضيق

الدردنيل، الذي كان يُعرف قديمًا باسم الهيلسبوننت، باستخدام جسور عائمة أُعدت لعبور القوات. وتروي هذه المصادر أيضًا أن عاصفة دمرت جسرًا أول، وأن الملك أمر بإعادة بنائه، لكن التفاصيل الدرامية المرتبطة بالعقوبات التي قيل إنه فرضها على البحر ينبغي قراءتها بوصفها جزءًا من الرواية القديمة، لا سجلًا حرفيًا يمكن التحقق من كل جزئية فيه.

تقدمت القوات عبر تراقيا ومقدونيا نحو جنوب اليونان. ولم تكن المدن اليونانية موحدة في موقفها؛ فقد اختارت بعض الجماعات مقاومة الفرس، بينما خضعت جماعات أخرى أو تعاونت معهم، أحيانًا بسبب حسابات محلية أو خوف من القوة المتقدمة.

وهذا التفصيل مهم لفهم الحرب لم يكن هناك شعب يوناني واحد يعيش تحت حكومة موحدة، بل مدن وممالك ومناطق ذات مصالح مختلفة. ولذلك لم تكن مقاومة الفرس مجرد معركة بين جيشين، بل محاولة لتنسيق جهود قوى مستقلة، لم تكن تثق إحداها بالأخرى دائمًا.

اجتمعت مدن عدة في تحالف لمواجهة الحملة، وكانت إسبرطة من أبرز القوى البرية فيه، بينما امتلكت أثينا أسطولًا آخذًا في القوة. ولم يختفِ التنافس بين المدينتين، لكن الخطر المشترك دفعهما إلى التعاون في تلك المرحلة.

ثيرموبيلاي الهزيمة التي أصبحت رمزًا

عند ممر ثيرموبيلاي، شمالي اليونان، حاولت قوة يونانية بقيادة الملك الإسبرطي ليونيداس إبطاء تقدم الجيش الفارسي. كان الممر الضيق مناسبًا للدفاع، لأنه حدّ من قدرة الجيش الأكبر على الاستفادة من اتساع عدده.

تشتهر الرواية بمشاركة ثلاثمئة إسبرطي، لكن هؤلاء لم يكونوا وحدهم في المعركة؛ فقد شاركت معهم قوات يونانية أخرى بأعداد متفاوتة، وتبدلت أعداد المدافعين خلال مراحل القتال. كما لا يمكن اختزال المقاومة كلها في مجموعة صغيرة من الرجال، مهما كانت شهرة الإسبرطيين في الذاكرة اللاحقة.

استطاع اليونانيون مقاومة التقدم الفارسي في الممر، لكن الفرس تمكنوا من الالتفاف على المدافعين بعد أن دلّهم رجل محلي، بحسب رواية هيرودوت، على طريق جبلي يتيح الوصول إلى خلف مواقعهم.

أدرك ليونيداس أن الموقف أصبح خطيرًا، فبقي مع قسم من قواته وقاتل حتى النهاية، بينما انسحب آخرون. وانتهت المعركة بهزيمة اليونانيين ومقتل ليونيداس وعدد من رفاقه.

لم تمنع ثيرموبيلاي الجيش الفارسي من التقدم نحو جنوب اليونان، ولذلك لا يصح وصفها بانتصار عسكري يوناني. لكن المقاومة منحت القوات المتحالفة وقتًا، وأصبحت لاحقًا رمزًا للشجاعة والتضحية في مواجهة قوة تفوق المدافعين عددًا. وفي الوقت نفسه، كانت هناك مواجهة بحرية قرب أرتيميسيوم، تزامنت مع معركة ثيرموبيلاي تقريبًا. لم تحسم هذه الاشتباكات السيطرة على البحر، لكنها أظهرت أن الأسطول اليوناني قادر على مقاومة القوات الفارسية، وأن نتيجة الحملة لن تُقرر على البر وحده.

أثينا تُخلى (قرار مؤلم لإنقاذ المدينة)

بعد سقوط ثيرموبيلاي، أصبح الطريق إلى أتيكا مفتوحًا أمام القوات الفارسية. وأدرك القادة الأثينيون أن الدفاع عن المدينة نفسها قد يؤدي إلى محاصرة السكان والجيش في موقع لا يمكن الاحتفاظ به. كان ثيميستوكليس

من أبرز المؤيدين للاعتماد على الأسطول، فجرى إجلاء عدد كبير من سكان أثينا إلى مناطق وجزر مجاورة، بينما انتقل المقاتلون إلى السفن أو التحقوا بالقوات المتحالفة. ولم تكن عملية الإجلاء سهلة؛ فقد اضطر الناس إلى ترك منازلهم وممتلكاتهم، ولم يكن الجميع على استعداد لقبول هذا القرار. دخل الفرس أثينا وأحرقوا أجزاء من المدينة ومنشآتها الدينية. وكان تدمير المدينة ضربة قاسية، لكنه لم ينفِ القدرة الأثينية على القتال، لأن قوة المدينة البحرية بقيت موجودة خارج أسوارها.

وهنا ظهرت أهمية قرار بناء الأسطول قبل سنوات. فلو اعتمدت أثينا على الدفاع البري وحده، لربما فقدت قدرتها على مواصلة الحرب بعد احتلال المدينة. أما الأسطول فقد وفر وسيلة لاستمرار المقاومة، وأتاح للأثينيين المشاركة في معركة يمكن أن تغيّر مسار الحملة كلها.

سلاميس البحر يغيّر نتيجة الحرب

في خريف عام ٤٨٠ قبل الميلاد، واجه الأسطول اليوناني الأسطول الفارسي في مضيق سلاميس، قرب أتيكا. كانت القوات الفارسية قد احتلت أثينا، لكن السيطرة على المدينة لم تكن تعني أنها انتصرت في الحرب؛ إذ بقي الأسطول اليوناني قادرًا على القتال، وكان من الضروري إخضاعه أو إبعاده لمنع استمرار المقاومة.

اختلف القادة اليونانيون حول المكان الأنسب للمعركة. فبعضهم فضّل الانسحاب نحو مواقع أخرى، بينما رأى ثيميستوكليس أن المياه الضيقة قرب سلاميس قد تمنح اليونانيين فرصة لمعادلة التفوق العددي الفارسي.

في المساحات البحرية الواسعة، تستطيع كثرة السفن أن تمنح الأسطول الأكبر خيارات متعددة للمناورة. أما في الممرات الضيقة، فقد تتزاحم السفن وتتعطل حركة بعضها، ويصبح التنسيق أكثر صعوبة. وقد ساعدت هذه الظروف الأسطول اليوناني على مواجهة خصمه في مساحة لم تسمح للعدد الأكبر بأن يتحول بسهولة إلى ميزة حاسمة.

انتهت معركة سلاميس بانتصار كبير لليونانيين، وتعرض الأسطول الفارسي لخسائر مؤثرة. وتختلف الروايات القديمة في تفاصيل المعركة وأعداد السفن والخسائر، لكن أهميتها الاستراتيجية واضحة فقد جعلت استمرار الحملة الفارسية أكثر صعوبة، ودفعت خشايارشا إلى مغادرة اليونان مع جزء من قواته، بينما بقي جيش تحت قيادة ماردونيوس لمواصلة العمليات في العام التالي. ولم تكن سلاميس مجرد انتصار لأثينا وحدها؛ فقد شاركت في المعركة سفن من مدن يونانية أخرى، وأثبت التحالف أن التعاون البحري قادر على إلحاق هزيمة بقوة إمبراطورية كبرى. ومع ذلك، فإن دور الأسطول الأثيني كان محوريًا، وسيكون لهذا التفوق البحري أثر عميق في مكانة أثينا بعد الحرب.

بلاتايا وميكالي انحسار الخطر الفارسي

في عام ٤٧٩ قبل الميلاد، عادت الحرب إلى البر. فقد واجهت قوات يونانية متحالفة الجيش الفارسي بقيادة ماردونيوس قرب بلاتايا في بيوتيا. وانتهت المعركة بانتصار يوناني حاسم ومقتل ماردونيوس، ما أضعف قدرة الفرس على مواصلة حملتهم داخل اليونان.

وفي الفترة نفسها تقريبًا، خاض اليونانيون معركة عند ميكالي، على الساحل الغربي لآسيا الصغرى، ضد قوات فارسية. وتصف الروايات القديمة انتصارًا

يونانياً هناك أيضاً، رغم اختلاف التفاصيل المتعلقة بتزامن المعركتين وطبيعة الأحداث. لم تختفِ الإمبراطورية الفارسية بعد هذه الهزائم، ولم تنته كل المواجهات بين الفرس واليونانيين في آسيا الصغرى والجزر. لكن محاولة إخضاع البر اليوناني بالقوة التي شهدها عام ٤٨٠ قبل الميلاد فشلت، وأصبحت المدن اليونانية أكثر استعداداً لمتابعة القتال خارج حدودها، وخصوصاً في بحر إيجه وعلى سواحل آسيا الصغرى.

وهنا ينبغي التمييز بين أمرين فقد نجحت المدن المتحالفة في منع السيطرة الفارسية على اليونان القارية، لكنها لم تتحول إلى دولة موحدة. بقيت كل مدينة متمسكة باستقلالها، واستمرت الخلافات حول القيادة وتوزيع الأعباء والأهداف التي ينبغي أن تحققها الحرب.

ماذا تركت الحروب في الذاكرة اليونانية؟

تُعد الحروب الفارسية من الأحداث المركزية في الذاكرة التاريخية اليونانية، وقد وصلتنا رواية واسعة عنها في كتابات هيرودوت، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، ويُعرف غالباً بأنه أحد رواد الكتابة التاريخية في العالم اليوناني. لكن هيرودوت لم يكن شاهداً مباشراً على جميع الأحداث التي رواها، كما اعتمد على روايات شفوية وتقاليده محلية ومعلومات جمعها من مصادر مختلفة. ولهذا يقرأ المؤرخون كتابه قراءة نقدية، فيقارنون رواياته بالشواهد الأخرى، ولا سيما حين يذكر أعداداً ضخمة أو خطباً طويلة أو أحداثاً يصعب التحقق منها.

وتقدم مسرحية الفرس للشاعر الأثيني إسخيلوس، التي عُرضت عام ٤٧٢ قبل الميلاد تقريباً، شاهداً أدبياً مهماً على الطريقة التي تذكر بها الأثينيون الحرب. والمميز في المسرحية أنها تعرض الهزيمة من منظور البلاط

الفارسي، وتصور وقع الانتصار اليوناني على الجانب الآخر، بدل الاكتفاء برواية البطولة من وجهة النظر المنتصرة.

ومع ذلك، لا ينبغي اعتبار المسرحية سجلاً مباشراً لما جرى في البلاط الفارسي؛ فهي عمل تراجيدي صاغ الأحداث وفق أهدافه الفنية والسياسية. لكنها تكشف أن الحرب دخلت مبكراً مجال الأدب والمسرح، وأن اليونانيين استطاعوا تحويل الحدث العسكري إلى موضوع للتأمل في السلطة والغرور والهزيمة ومصير الإمبراطوريات.

أما الأثر السياسي الأبعد للحرب، فكان صعود أثينا بوصفها قوة بحرية كبرى. لقد ساهم الأسطول في إنقاذ المدينة، وأصبح مصدراً للنفوذ والثروة، لكنه وضع أثينا أيضاً أمام سؤال جديد هل ستستخدم قوتها البحرية لحماية المدن اليونانية، أم ستتحول القيادة التي اكتسبتها أثناء الحرب إلى سيطرة على حلفائها؟

كان هذا السؤال بداية مرحلة أخرى، ستنشأ فيها رابطة بحرية لمواجهة الفرس، ثم تتحول تدريجياً إلى أساس إمبراطورية أثينية، وتدفع اليونان نحو صراع جديد بين أثينا وإسبرطة.

أثينا في عصر القوة من حامية المدن إلى سيدة بحر إيجه

رابطة ديلوس تحالف وُلد من الخوف

لم تنتهِ المواجهة بين المدن اليونانية والإمبراطورية الفارسية بانتصاري بلاتايا وميكالي. فقد بقيت مدن يونانية كثيرة على سواحل آسيا الصغرى والجزر القريبة من بحر إيجه معرضة للضغط الفارسي، ورأت أن عليها مواصلة الدفاع عن استقلالها بدل انتظار حملة جديدة.

في عام ٤٧٨ أو ٤٧٧ قبل الميلاد تقريبًا، نشأت رابطة عسكرية بحرية عُرفت باسم رابطة ديلوس، نسبة إلى جزيرة ديلوس التي استُخدمت مركزًا لاجتماعاتها وخزانتها في بداياتها. ضمت الرابطة أثينا ومدنًا وجزرًا يونانية متعددة، وكان هدفها المعلن مواصلة الحرب ضد الفرس، وحماية المدن اليونانية، وتعويض الأضرار التي لحقت بها.

لم تكن جميع المدن قادرة على تقديم العدد نفسه من السفن والجنود. لذلك ساهمت بعض المدن بسفنها، بينما دفعت مدن أخرى أموالًا تُعرف باسم الجزية أو المساهمة المالية، استُخدمت لتمويل الأسطول والحملات العسكرية. وتولت أثينا دورًا قياديًا في تنظيم القوة البحرية، وهو دور بدأ منطقيًا بعد ما أظهره أسطولها من أهمية في معركة سلاميس.

لكن توزيع الأعباء حمل في داخله بذور مشكلة مستقبلية. فكلما اعتمدت المدن على أثينا في الدفاع عنها، ازدادت قدرة أثينا على توجيه القرارات العسكرية والسياسية. ومع الوقت، أصبح من الصعب على بعض أعضاء الرابطة الانسحاب منها، حتى عندما تغيرت مصالحهم أو لم يعودوا يرغبون في المشاركة في الحروب التي تقودها أثينا.

وهكذا بدأ التحالف بوصفه وسيلة جماعية لمواجهة قوة خارجية، لكنه أخذ يتحول تدريجيًا إلى نظام تقوده مدينة واحدة وتملك فيه الكلمة الأثقل.

لماذا انتقلت الخزانة إلى أثينا؟

كانت خزانة الرابطة في ديلوس، حيث احتفظت المدن بمساهماتها المالية المشتركة. لكن في عام ٤٥٤ قبل الميلاد تقريبًا، نُقلت الخزانة إلى أثينا. وتُربط هذه الخطوة عادة بتزايد النفوذ الأثيني، وإن كانت ظروفها الدقيقة وتبريراتها السياسية موضع نقاش.

أدى انتقال الأموال إلى مركز أثيني إلى جعل العلاقة بين الرابطة وأثينا أكثر تعقيداً. فقد باتت المدينة تمتلك نفوذاً مباشراً على الموارد التي تجمعها من حلفائها، وأصبحت قادرة على توجيه جانب من الإنفاق نحو احتياجاتها ومشروعاتها، إلى جانب الأهداف العسكرية المشتركة.

ولم تكن هذه الأموال مجرد أرقام في خزائن الدولة؛ فقد ساهمت في تمويل الأسطول، ودعم الحملات، وتعزيز مكانة أثينا البحرية. كما ارتبطت موارد الإمبراطورية الأثينية لاحقاً بأعمال عمرانية كبيرة داخل المدينة، من بينها منشآت دينية ومبانٍ عامة أصبحت من أشهر آثار اليونان القديمة.

لكن ازدهار أثينا لم يكن قائماً على الجزية وحدها؛ فقد اعتمد أيضاً على الزراعة والتجارة والحرف والمناجم والموانئ. وتداخلت هذه الموارد معاً لتجعل المدينة مركزاً اقتصادياً وثقافياً بالغ التأثير.

حين أرادت المدن الانسحاب

لم تقبل جميع المدن استمرار عضويتها في الرابطة بالشروط نفسها. فقد حاولت بعض المدن الانسحاب أو التوقف عن تقديم مساهماتها، لكن أثينا تعاملت مع محاولات الانفصال بوصفها تهديداً لنظامها البحري.

شهدت جزيرة ناكسوس، في القرن الخامس قبل الميلاد، محاولة للانسحاب من الرابطة، انتهت بإخضاعها للقوة الأثينية. وتعد هذه الحادثة من العلامات المبكرة على أن الرابطة لم تعد مجرد تحالف اختياري متكافئ بين مدن مستقلة. كما تمردت جزيرة ثاسوس في عشرينيات القرن الخامس قبل الميلاد، على خلفية صراعات تتعلق بالمصالح الاقتصادية والمناجم والمناطق

التجارية. وبعد حصار طويل، أُجبرت على الاستسلام، وفقدت بعض ممتلكاتها البحرية والتحصينية، كما فُرضت عليها شروط قاسية.

توضح هذه الوقائع كيف تغير معنى التحالف. فالدفاع المشترك ضد فارس منح أثينا نفوذًا مشروعًا في نظر حلفائها في البداية، لكن استخدام القوة لمنعهم من المغادرة جعل العلاقة أقرب إلى السيطرة الإمبراطورية.

ولم يكن أعضاء الرابطة جميعًا عاجزين أو مترددين؛ فقد امتلكت بعض المدن ثروة ومصالح خاصة، وحاولت الحفاظ على استقلالها. إلا أن التفوق البحري الأثيني جعل كلفة التمرد مرتفعة، ولا سيما عندما كانت المدينة قادرة على إرسال أسطول لحصار خصومها.

وهنا تظهر مفارقة تاريخية ساعدت أثينا مدناً يونانية على مقاومة الهيمنة الفارسية، ثم أصبحت هي نفسها قوة تفرض شروطها على مدن يونانية أخرى.

بريكليس رجل السياسة في قلب أثينا

في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، برز بريكليس بوصفه أحد أهم القادة السياسيين في أثينا. لم يكن ملكًا ولا حاكمًا منفردًا، بل سياسيًا استطاع اكتساب نفوذ واسع عبر المؤسسات الأثينية، ولا سيما من خلال انتخابه المتكرر لمنصب الاستراتيجي، أي القائد العسكري.

ارتبط اسمه بمرحلة ازدهار ثقافي وعمراني، وبفترة توسع في المشاركة السياسية للمواطنين الذكور. كما أصبح أحد أبرز المدافعين عن النظام الديمقراطي الأثيني، وفق الصورة التي حفظتها لنا المصادر القديمة.

لكن بريكليس لم يكن قائدًا خارج الصراعات؛ فقد واجه خصومًا سياسيين، وارتبطت سياساته بتوسيع النفوذ الأثيني وبالاتماد على موارد الرابطة البحرية. كما أن صورته وصلت إلينا بدرجة كبيرة عبر كتاب لاحقين، وفي مقدمتهم المؤرخ ثوقيديدس، الذي رأى في شخصيته قدرة استثنائية على توجيه الجمهور.

ومن المهم ألا ننسب كل ما حدث في أثينا خلال هذه المرحلة إلى بريكليس وحده. فقد كانت المدينة نتاج مؤسسات وتيارات فكرية واقتصادية وفنية متعددة، وكان ازدهارها مرتبطًا أيضًا بعمل الحرفيين والبنائين والبحارة والكتاب والمسرحيين، وبالموارد التي تدفقت إليها من داخل أتيكا ومن شبكات التجارة والتحالف. ومع ذلك، فإن مكانة بريكليس تكشف أهمية القيادة السياسية في توجيه المؤسسات القائمة. فالديمقراطية لا تعني غياب القادة ذوي النفوذ، بل تعني أن سلطتهم تعمل ضمن نظام سياسي يسمح بالمنافسة والمساءلة، وإن كانت حدود هذه المشاركة في أثينا القديمة مختلفة جذريًا عن الديمقراطيات الحديثة.

البارثينون معبد فوق الصخرة المقدسة

على مرتفع الأكروبوليس في أثينا، ارتفع البارثينون، المعبد المخصص لأثينا، إلهة المدينة الحامية. بدأ بناؤه عام ٤٤٧ قبل الميلاد تقريبًا، واكتمل الجزء الأساسي منه عام ٤٣٨ قبل الميلاد، بينما استمر العمل في بعض عناصر الزخرفة والنحت بعد ذلك. لم يكن البارثينون مجرد مبنى ديني؛ فقد مثل إعلانًا بصريًا عن قوة أثينا وثروتها ومكانتها. وكانت هندسته وزخارفه تعكس براعة الحرفيين والنحاتين، كما أظهرت قدرة المدينة على حشد موارد بشرية ومالية ضخمة لإنجاز مشروع عام بهذا الحجم. ارتبط تصميمه بالمهندسين

إكتينوس وكاليكراتيس، بينما نُسب الإشراف الفني على النحت والبرنامج الزخرفي إلى فيدياس، أحد أشهر النحاتين في اليونان القديمة. وقد ضم المعبد تمثالاً ضخماً لأثينا مصنوعاً من مواد ثمينة، وفق الروايات القديمة، لكنه لم يصل إلينا.

لم يكن البناء خالياً من الجدل السياسي. فقد أنجز في زمن كانت فيه أثينا تسيطر على موارد الرابطة البحرية، ولذلك ارتبطت مشروعاتها العمرانية بالنقاش حول كيفية استخدام الأموال المشتركة. ورأى منتقدون أن المدينة لا ينبغي أن توظف مساهمات حلفائها في تعزيز مجدها الخاص.

أما بالنسبة إلى الأثينيين، فقد حملت المشروعات العامة معاني دينية ومدنية معاً فهي تكرم الآلهة، وتوفر العمل للحرفيين، وتزين المدينة، وتُظهر قدرتها على تجاوز الدمار الذي أصابها خلال الغزو الفارسي.

واليوم، لا يمكن فهم البارثينون باعتباره تحفة معمارية منفصلة عن السياسة والاقتصاد والدين. فقد اجتمعت فيه هذه العناصر كلها، وأصبح واحداً من أكثر الشواهد وضوحاً على العلاقة بين الفن والسلطة في أثينا الكلاسيكية.

المسرح المدينة تشاهد نفسها

ازدهر المسرح الأثيني في القرن الخامس قبل الميلاد، وأصبح جزءاً مهماً من الحياة الدينية والثقافية والسياسية. وكانت العروض الكبرى تُقام ضمن احتفالات مرتبطة بديونيسوس، إله الخمر والخصب والمسرح، وتجمع أعداداً كبيرة من المواطنين والزوار.

لم يكن المسرح مجرد تسلية منفصلة عن شؤون المدينة. فقد تناولت التراجيديات موضوعات مثل العدالة والانتقام والسلطة والحرب ومسؤولية

الإنسان، بينما سخرت الكوميديا من السياسيين والعادات الاجتماعية والأفكار الشائعة.

ومن أبرز شعراء التراجيديا إسخيلوس وسوفوكليس ويوربيديس. وقدم كل منهم معالجة مختلفة للأساطير والشخصيات والصراعات الإنسانية. أما في الكوميديا، فبرز أريستوفانيس، الذي استخدم السخرية المباشرة والتخيل والمبالغة للتعليق على قضايا أثينا وشخصياتها العامة.

كان حضور الجمهور عنصرًا أساسيًا في هذه التجربة. فالمسرح جمع بين الاحتفال الديني والتنافس الفني والتفكير في مشكلات المجتمع. ولم تكن الأعمال المسرحية وثائق تاريخية بالمعنى الدقيق، لكنها تمنحنا نافذة على المخاوف والقيم والتصورات التي شغلت الأثينيين. ومع ذلك، لم يكن الوصول إلى كل أشكال المشاركة الثقافية والسياسية متساويًا. فقد خضعت مشاركة النساء في الحياة العامة لقيود مختلفة، ولا نملك دليلًا يسمح بتعميم صورة واحدة عن حضورهن للعروض في كل المناسبات. كما أن المواطن الأثيني كان يتمتع بمكانة سياسية لا يملكها الأجنبي المقيم أو العبد، مهما كان إسهامه في اقتصاد المدينة.

ازدهار الفكر حين صار السؤال أداة

لم يكن القرن الخامس قبل الميلاد عصرًا للفن وحده؛ فقد شهدت أثينا نشاطًا فكريًا واسعًا، شارك فيه فلاسفة وخطباء ومعلمون ومؤرخون، وجاء بعضهم من خارج المدينة واستقر فيها بسبب مكانتها.

اهتم بعض المفكرين بالطبيعة وأصل الكون، بينما ركز آخرون على اللغة والخطابة والقانون والأخلاق. وظهر السفسطائيون، وهم معلمون قدموا



دروسًا في الخطابة والحجاج ومهارات المشاركة في الحياة العامة، مقابل أجر في كثير من الحالات.

أثار نشاطهم نقاشات حول العلاقة بين الحقيقة والإقناع، وبين القوانين التي يضعها البشر والطبيعة التي يعيشون ضمنها. ولم يكن السفسطائيون مدرسة واحدة متجانسة؛ فقد اختلفت آراؤهم ومناهجهم، ولا يصح اختزالهم في صورة المعلمين الذين يهتمون بالفوز في الجدل دون البحث عن الحقيقة.

وفي هذا المناخ، ظهر سقراط، الذي عُرف بأسئلته المتتابعة ومحاوراته مع الناس حول الفضيلة والعدالة والمعرفة. لم يترك سقراط مؤلفات مكتوبة من عنده، ولذلك نعرفه أساسًا عبر كتابات تلاميذه وغيرهم، وفي مقدمتهم أفلاطون وزينوفون، وهما يقدمان صورًا مختلفة له. إن ازدهار الفكر في أثينا لم يحدث بمعزل عن مؤسساتها السياسية ومسرحها وأسواقها ومينائها. فقد وفرت المدينة فضاءً يجتمع فيه الناس من خلفيات متنوعة، ويتنافسون في الخطابة ويتبادلون الأفكار، وإن ظل هذا الفضاء مقيدًا بحدود المواطنة والتراتبية الاجتماعية. وهكذا، أصبحت أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد مركزًا بارزًا للتجريب السياسي والفني والفكري، لكنها لم تكن مجتمعًا مثاليًا؛ فقد ارتبط ازدهارها أيضًا بالهيمنة على حلفائها، وبوجود العبيد، وباستبعاد فئات واسعة من السكان عن السلطة.

القوة التي تحمل بذور الصراع

كلما ازدادت قوة أثينا البحرية، تعمقت مخاوف إسبرطة وحلفائها. فقد كانت إسبرطة تقود شبكة من التحالفات البرية في البيلوبونيز، بينما اعتمد نفوذ أثينا على الأسطول والموانئ والموارد القادمة من رابطة ديلوس.

لم يكن الخلاف مجرد تنافس شخصي بين قادة؛ فقد اختلفت المدينتان في مصالحهما الأمنية والسياسية، كما أن توسع أثينا جعل بعض المدن تخشى أن تفقد استقلالها. وكانت إسبرطة نفسها قوة تفرض نفوذها على حلفائها، لذلك لم يكن الصراع مواجهة بسيطة بين مدينة حرة وأخرى مستبدة، بل تنافسًا بين نظامين من التحالفات ومراكز القوة.

شهدت العقود التي تلت الحروب الفارسية مواجهات وتوترات متكررة، كما حاولت بعض المدن تغيير تحالفاتها أو الاستفادة من التنافس بين الطرفين. ومع تراكم الأزمات، أصبح الحفاظ على السلام أصعب.

وفي عام ٤٣١ قبل الميلاد، اندلعت الحرب البيلوبونيسية بين أثينا وإسبرطة وحلفائهما. وستكون هذه الحرب واحدة من أطول الصراعات وأكثرها تدميرًا في التاريخ اليوناني الكلاسيكي، لا لأنها أنهت قوة أثينا فورًا، بل لأنها استنزفت المدن اليونانية وغيّرت توازن القوى بينها.

لم تكن الحرب نتيجة حادثة منفردة فقط، بل ثمرة سنوات من الشكوك والمنافسة والصراع على النفوذ. وهكذا تحولت القوة التي ساعدت أثينا على صد الفرس إلى مصدر قلق لجيرانها، وأصبح نجاحها نفسه أحد العوامل التي دفعت العالم اليوناني نحو مواجهة داخلية واسعة.

الحرب البيلوبونيسية حين استنزفت المدن اليونانية نفسها

البداية حرب لم تكن حادثة واحدة

في عام ٤٣١ قبل الميلاد، اندلعت الحرب البيلوبونيسية بين أثينا وإسبرطة وحلفائهما، وامتدت المواجهات الرئيسية حتى عام ٤٠٤ قبل الميلاد. ولم تكن الحرب سلسلة متواصلة من المعارك المتشابهة، بل صراعًا طويلًا تغيّرت فيه

التحالفات والاستراتيجيات، ومرّ بمراحل من القتال والهدنة، قبل أن ينتهي بهزيمة أثينا.

كانت أثينا تعتمد على الأسطول والموانئ والموارد القادمة من شبكتها البحرية، بينما امتلكت إسبرطة وحلفاؤها تفوقًا واضحًا في القوات البرية. لذلك لم يكن أي من الطرفين قادرًا على تحقيق نصر سريع من دون تجاوز نقاط القوة لدى خصمه.

اعتمدت استراتيجية بريكليس الأثيني على تجنب مواجهة برية كبرى مع الجيش الإسبرطي. فعندما تدخل قوات إسبرطة أتيكا، كان الأثينيون ينسحبون إلى داخل تحصينات المدينة، ويعتمدون على أسطولهم لنقل القوات والإمدادات ومهاجمة سواحل الخصم.

بدأت هذه الخطة معقولة من الناحية العسكرية؛ فأسوار أثينا كانت تربط المدينة بمينائها عبر تحصينات طويلة، مما سمح لها بالاحتفاظ باتصالها بالبحر حتى عندما تتعرض الأراضي المحيطة بها للتخريب. لكن الاستراتيجية حملت ثمنًا اجتماعيًا باهظًا فقد اضطر سكان الريف إلى ترك منازلهم وحقولهم والانتقال إلى مناطق مكتظة داخل الأسوار.

لم يكن ذلك مجرد تغيير مؤقت في مكان الإقامة. فقد فقد المزارعون محاصيلهم أو عجزوا عن الوصول إلى أراضيهم، واضطر السكان إلى التعايش في مساحة محدودة، بينما كانت الحرب تمنع كثيرًا من الأنشطة الاقتصادية المعتادة. وأصبح نجاح الخطة العسكرية معتمدًا أيضًا على قدرة المدينة على تحمل الضغط داخلها.

الوباء الذي ضرب أثينا

في عام ٤٣٠ قبل الميلاد، وبعد وقت قصير من بدء الغزو الإسبرطي الثاني لأتيكا، انتشر وباء شديد في أثينا. عاد المرض في موجات لاحقة، وأصاب السكان والجنود، وأحدث خسائر بشرية هائلة في مدينة كانت مكتظة أصلاً بسبب انتقال سكان الريف إليها.

وصف المؤرخ الأثيني ثوقيديديس المرض بتفصيل لافت. وقد أصيب به بنفسه ونجا، ولذلك قدّم شهادة مهمة عن أعراضه وانتشاره، وعن انهيار بعض مظاهر الحياة الاجتماعية خلال الأزمة. لكنه لم يتمكن من تحديد العامل المسبب للمرض بالمعرفة الطبية المتاحة في عصره.

ولا يزال تحديد المرض موضع نقاش بين الباحثين. فقد طُرحت احتمالات متعددة، من بينها أمراض معدية مختلفة، لكن لا توجد نتيجة علمية قاطعة تسمح بتسمية العامل الممرض اعتماداً على وصف ثوقيديديس وحده.

كانت آثار الوباء تتجاوز عدد الوفيات. فقد عجزت الأسر عن رعاية مرضاها عندما مرض أفرادها واحداً بعد الآخر، وواجهت المدينة صعوبة في التعامل مع الأعداد الكبيرة من المصابين والموتى. وتحدث ثوقيديديس عن تغير سلوك بعض الناس، إذ فقدوا الثقة بأن الالتزام بالقواعد المعتادة سيحميهم، بعدما رأوا أن المرض قد يصيب الغني والفقير، والقوي والضعيف.

كما أضعفت الكارثة قدرة أثينا على مواصلة الحرب. فقد خسر الجيش والبحرية أفراداً، وتضررت الحياة الاقتصادية، وازداد الغضب من القيادة السياسية التي بدت عاجزة عن حماية السكان من المصيبة.

أصيب بريكلير بالانتقاد، وفقد منصبه لفترة، ثم عاد إلى القيادة. لكنه توفي عام ٢٩٤ قبل الميلاد خلال موجة الوباء، بحسب الرواية التاريخية التقليدية. وبرحيله فقدت أثينا أحد أبرز قادتها في مرحلة شديدة الحساسية. لم يُنه موته الحرب، لكنه ترك المدينة أمام واقع جديد لم يعد بإمكانها الاعتماد على شخصية سياسية واحدة تمتلك الخبرة والقدرة على ضبط التنافس الداخلي. ومع مرور الوقت، أصبح الصراع على القيادة جزءًا من أزمة أثينا نفسها. ميتيليني هل تعاقب المدينة كلها بسبب تمردها؟

في عام ٢٨٤ قبل الميلاد تقريبًا، تمردت ميتيليني، إحدى المدن المهمة في جزيرة ليسبوس، على السيطرة الأثينية. وكانت المدينة عضوًا في رابطة ديلوس، لكنها احتفظت بمكانة خاصة ونظام سياسي يختلف عن بعض أعضاء الرابطة الآخرين. أرسلت أثينا قوات لمحاصرتها، وانتهى التمرد باستسلامها عام ٢٧٤ قبل الميلاد. وبعد وصول خبر الاستسلام إلى أثينا، اتخذت الجمعية قرارًا قاسيًا يقضي بقتل الرجال البالغين في المدينة واستعباد النساء والأطفال.

أرسلت سفينة لتنفيذ القرار، لكن الأثينيين عادوا في اليوم التالي إلى مناقشة المسألة. وفي النقاش الذي حفظه ثوقيديدس، ظهرت مواقف متعارضة دعا كليون إلى تنفيذ العقوبة الشاملة، معتبرًا أن التساهل يشجع المدن الأخرى على التمرد، بينما دافع ديودوتوس عن إعادة النظر في القرار، وحذر من أن العقوبة الجماعية لن تكون بالضرورة مفيدة لمصالح أثينا.

انتهى التصويت الثاني بإلغاء القرار السابق، وأرسلت سفينة أخرى تحمل القرار المعدل، فوصلت في الوقت المناسب لمنع تنفيذ العقوبة على نطاقها الأول. ومع ذلك، لم تفلت ميتيليني من العقاب؛ فقد أعدم عدد من الأشخاص



الذين عُدّوا مسؤولين عن التمرد، وصودرت أراضي وجرى توزيعها على أثينيين.

تكشف هذه الحادثة جانباً مهماً من الديمقراطية الأثينية زمن الحرب. فقد استطاع المواطنون إعادة مناقشة قرار خطير وتغييره، وهو ما يدل على أن النقاش السياسي لم يكن شكلياً. لكن القرار الأول نفسه يكشف أيضاً استعداد الأغلبية لاستخدام العنف الجماعي ضد مدينة متمردة.

لم تكن الديمقراطية ضماناً تلقائية للعدالة؛ فقد تسمح المؤسسات بالمراجعة والتصحيح، لكنها قد تتخذ أيضاً قرارات قاسية عندما يسيطر الخوف والغضب والرغبة في الردع على النقاش العام.

الحرب خارج أسوار أثينا

لم يقتصر القتال على أتيكا أو على المواجهات المباشرة بين أثينا وإسبرطة. فقد امتد إلى مدن ومناطق بعيدة عن المركزين، وأصبحت المستعمرات والموانئ والممرات البحرية عناصر مهمة في الصراع.

في عام ٤٢٥ قبل الميلاد، استولى الأثينيون على موقع في بيلوس، على الساحل الغربي للبيلوبونيز، ثم تمكنوا من عزل مجموعة من الجنود الإسبرطيين في جزيرة سفكتيريا القريبة. واضطرت إسبرطة إلى مواجهة وضع غير معتاد فقد أصبح عدد من محاربيها في الأسر، وهددت خسارتهم مكانة المدينة العسكرية.

استسلمت مجموعة من الإسبرطيين في نهاية المطاف، وكان ذلك حدثاً استثنائياً في الذاكرة اليونانية؛ إذ اعتُبرت إسبرطة مجتمعةً يربط مكانة المواطن بالشجاعة والقتال، ولذلك أحدث وقوع مقاتليها في الأسر صدمة

سياسية ومعنوية. أعطى هذا الانتصار أثينا ورقة ضغط مهمة، لكنه لم يحسم الحرب. ففي السنوات التالية، تمكن القائد الإسبرطي براسيداس من تحقيق نجاحات في شمال بحر إيجه، واستولى عام ٤٢٤ قبل الميلاد على أمفيبوليس، وهي مدينة مهمة بسبب موقعها وموارد المنطقة المحيطة بها. كانت خسارة أمفيبوليس ضربة لأثينا، لأن المدينة كانت مرتبطة بمصالحها التجارية وبالوصول إلى موارد استراتيجية. وقد حاول القائد الأثيني كليون استعادتها، لكنه قُتل في المعركة عام ٤٢٢ قبل الميلاد، كما قُتل براسيداس في المواجهة نفسها. أزال موت القائدين عقبتين سياسيتين أمام التفاوض، وازداد لدى الطرفين إدراك أن الحرب لا تمنح أيًا منهما نصرًا حاسمًا بسهولة.

صلح نيسياس سلام لم يمهّد العداءة

في عام ٤٢١ قبل الميلاد، أبرمت أثينا وإسبرطة اتفاقًا عُرف باسم صلح نيسياس، نسبة إلى السياسي الأثيني الذي ارتبط بالمفاوضات. كان الهدف إنهاء القتال وإعادة بعض المواقع والأسرى، وإتاحة فرصة لاستعادة الاستقرار بعد سنوات من الخسائر. لكن الاتفاق لم يحظَ بقبول كامل لدى جميع الحلفاء. فقد اعترضت بعض المدن على شروطه، ولم تُنفذ جميع بنوده بالطريقة التي أُريدت لها. كما استمرت المنافسة على النفوذ، وظلت الشكوك المتبادلة أقوى من أن يزيلها توقيع معاهدة.

خلال فترة الهدنة، لم يتوقف النشاط السياسي أو العسكري في العالم اليوناني. فقد تشكلت تحالفات جديدة، وتبدلت مواقف مدن، وظهرت محاولات لاستغلال ضعف الطرفين أو تحسين المواقع التفاوضية.

وفي عام ١٨٤٠ قبل الميلاد، انتصرت إسبرطة على قوات التحالف المعادي لها في معركة مانتينيا، داخل البيلوبونيز. وكان لهذا الانتصار أثر في استعادة الثقة بقدرة إسبرطة على قيادة حلفائها، كما أضعف الجهود الرامية إلى إقامة توازن جديد يحد من نفوذها.

وهكذا لم يكن صلح نيسياس نهاية الحرب بقدر ما كان توقفًا مؤقتًا في صراع لم تُحل أسبابه الأساسية. بقيت أثينا تخشى فقدان نفوذها البحري، وبقيت إسبرطة قلقة من توسع القوة الأثينية، وظلت المدن الأخرى عالقة بين التحالفات والمصالح المتعارضة.

ميلوس حين تحدثت القوة بلغة المصالح

في عام ٤١٦ قبل الميلاد، هاجمت أثينا جزيرة ميلوس، التي حاولت الحفاظ على الحياد في الصراع، رغم ارتباطها بالعالم اليوناني وعلاقاتها المختلفة مع المدن الكبرى. أرادت أثينا إخضاع الجزيرة وإجبارها على الخضوع لسلطتها، بينما سعى الميلوسيون إلى الحفاظ على استقلالهم. وانتهت المفاوضات بالفشل، ثم حاصرت القوات الأثينية الجزيرة واستولت عليها.

وفق رواية ثوقيديدس، أعدم الرجال البالغون الذين أسروا، واستُبعد النساء والأطفال، وأسكنت الجزيرة لاحقًا بمستوطنين أثينيين. وتظل هذه الواقعة من أكثر الأمثلة قسوة على استخدام القوة ضد مجتمع صغير لا يستطيع مقاومة خصم أكبر.

وتشتهر الحادثة بما يُعرف باسم حوار الميليين، وهو حوار أدبي صاغه ثوقيديدس ضمن روايته للحرب. وفيه يعرض مواجهة بين منطق القوة الذي يتبناه ممثلو أثينا ومطالبة سكان ميلوس بحقهم في الاستقلال، مستندين إلى

الأمل في العدالة ومساعدة الآلهة والحلفاء. لا يمكن التعامل مع الحوار باعتباره محضراً حرفياً للمفاوضات؛ فقد صاغه المؤرخ وفق منهجه في عرض الحجج السياسية. لكنه يقدم تحليلاً بالغ التأثير للطريقة التي قد تبرر بها دولة قوية إخضاع دولة أضعف، حين تجعل المصلحة والقدرة العسكرية فوق الاعتبارات الأخلاقية.

لم تكن هذه السياسة خاصة بأثينا وحدها، كما أن إسبرطة لم تكن خالية من ممارسات الهيمنة والعنف. لكن حالة ميلوس تكشف التناقض بين الخطاب الذي يربط أثينا بحرية المواطنين وحكمهم لأنفسهم، وبين سلوكها عندما طالبت مدينة أخرى بالحق نفسه. وهنا يظهر السؤال الذي سيبقى حاضراً في قراءة التاريخ السياسي هل تستطيع الدولة التي تدافع عن الحرية داخل حدودها أن تحترم حرية الآخرين عندما تتعارض مع مصالحها؟

صقلية القرار الذي قلب مسار الحرب

في عام ٤١٥ قبل الميلاد، اتخذت أثينا قراراً بإرسال حملة عسكرية ضخمة إلى صقلية، في أقصى غرب العالم اليوناني. كانت مدينة سيراكيوز، إحدى أقوى مدن الجزيرة، هدفاً رئيسياً للحملة، بينما ارتبطت المبادرة أيضاً بصراعات وتحالفات محلية أرادت أثينا التأثير فيها.

لم تكن صقلية أرضاً مجهولة لليونانيين؛ فقد تأسست فيها مدن يونانية منذ قرون، وازدهرت بعض هذه المدن بالتجارة والزراعة، كما تنافست فيما بينها ومع القوى المحلية. وكانت سيراكيوز تملك موارد بشرية ومادية كبيرة، وأسواراً قوية، وموقعاً استراتيجياً يسمح لها بمقاومة الحصار.

كان ألكيببيادس من أبرز المدافعين عن الحملة الأثينية، ورأى فيها فرصة لتوسيع نفوذ المدينة، بينما أبدى نيسياس تحفظًا شديدًا، محذرًا من ضخامة المهمة والمخاطر التي تنطوي عليها. ومع ذلك، أبحر الأسطول الأثيني إلى صقلية، وشارك فيه عدد كبير من السفن والجنود والحلفاء.

قبل انطلاق الحملة بقليل، شهدت أثينا حادثة أثارت اضطرابًا سياسيًا ودينيًا، تمثلت في تشويه تماثيل هرمية حجرية كانت تُعرف باسم الهيرماي، وتوضع في الشوارع والمداخل. كما وُجّهت اتهامات مرتبطة بانتهاك شعائر دينية، وأصبح ألكيببيادس موضع شك، فاستُدعي للعودة إلى أثينا لمواجهة الاتهامات.

بدلًا من العودة، فرّ ألكيببيادس ولجأ إلى إسبرطة، ثم قدم لها نصائح بشأن كيفية مواجهة أثينا، بما في ذلك دعم سيراكيوز وتعزيز الضغط على أتيكا. وهكذا انتقل أحد أبرز قادة الحملة الأثينية إلى جانب الخصم.

استمرت الحملة رغم الاضطراب السياسي، لكنها واجهت مقاومة أشد مما توقعه الأثينيون. وتمكنت سيراكيوز من الاستفادة من التحصينات والموقع، ووصلت إليها مساعدات إسبرطية بقيادة جيليبوس. ومع مرور الوقت، تحول الهجوم الأثيني إلى حصار مكلف، ثم بدأت فرص النجاح تتضاءل.

أُرسلت تعزيزات أثينية إلى صقلية، لكن الوضع لم يتحسن. وفي عام ٤١٣ ق.م، قبل الميلاد، انتهت الحملة بكارثة عسكرية؛ فقد دُمّر جزء كبير من القوة البحرية، وحاول الجنود المنسحبون الفرار برًا، لكنهم تعرضوا للملاحقة والأسر. وأعدم القائدان نيسياس وديموستينيس بعد وقوعهما في الأسر، وفق الروايات القديمة.

كانت الخسارة من أضخم الكوارث التي تعرضت لها أثينا خلال الحرب. فقدت عددًا كبيرًا من السفن والجنود، واستنزفت مواردها، وأظهرت أن قوتها

البحرية لا تضمن النجاح في كل مكان، خصوصًا عندما تُرسل بعيدًا عن قواعدها وتواجه خصمًا مستعدًا للدفاع.

ولم تكن النتيجة مجرد خسارة حملة عسكرية. فقد شجعت الهزيمة بعض حلفاء أثينا على التمرد، ومنحت إسبرطة فرصة لزيادة الضغط، وأجبرت الأثينيين على إعادة التفكير في قدرتهم على مواصلة الحرب.

من الكارثة إلى الهزيمة

بعد فشل الحملة الصقلية، دخلت الحرب مرحلة جديدة. أقامت إسبرطة موقعًا عسكريًا محصنًا في ديكيليا، داخل أتيكا، عام ٤١٣ قبل الميلاد تقريبًا، ما أتاح لها الضغط على أثينا بصورة مستمرة بدل الاكتفاء بغزوات موسمية.

كما ازدادت أهمية التمويل الفارسي في الصراع. فقد عقدت إسبرطة اتفاقات مع ممثلين عن الإمبراطورية الفارسية، التي رأت في إضعاف أثينا فرصة لاستعادة نفوذها على المدن اليونانية في آسيا الصغرى. وبذلك دخل المال الفارسي في تمويل الأسطول الإسبرطي، وإن ظلت العلاقات بين الطرفين محكومة بالمصلحة والتنافس.

على الرغم من خسائرها، لم تنهز أثينا فورًا. فقد استطاعت في بعض المعارك البحرية تحقيق انتصارات جديدة، وأظهرت قدرة على إعادة بناء قواتها. لكنها عانت من اضطرابات داخلية، ووقع انقلاب سياسي عام ٤١١ قبل الميلاد أطاح بالديمقراطية لفترة قصيرة، وأقام حكمًا أوليغارشيًا ارتبط بمجلس الأربعمئة الذي حل محل مجلس الخمسمئة.

لم يستمر النظام الجديد طويلًا؛ فقد واجه مقاومة داخلية، خصوصًا بين أفراد الأسطول الأثيني الذين تمسكوا باستعادة الحكم الديمقراطي. وأعيد النظام

الديمقراطي في العام نفسه تقريباً، لكن الصراع كشف أن الحرب الخارجية كانت تزعزع المؤسسات السياسية داخل المدينة.

وفي السنوات التالية، استمرت أثينا في القتال، وحقت انتصارات بحرية، منها معركة سيزيكوس عام ٤١٠ قبل الميلاد. غير أن مواردها كانت تتناقص، ولم يكن من الممكن تعويض كل خسارة إلى ما لا نهاية.

في عام ٤٠٥ قبل الميلاد، هزم القائد الإسبرطي ليساندر الأسطول الأثيني في معركة أيغوسبوتامي على ساحل الدردنيل. وكانت الهزيمة حاسمة لأن أثينا اعتمدت على طرق البحر لاستيراد الحبوب والإمدادات، وفقدان أسطولها جعل المدينة عرضة للحصار والانقطاع عن مصادر الغذاء.

حاصرت القوات الإسبرطية أثينا، واضطرت المدينة إلى الاستسلام عام ٤٠٤ قبل الميلاد. فُرضت عليها شروط قاسية، منها تفكيك الأسوار الطويلة، وتسليم معظم سفنها الحربية، والتخلي عن إمبراطوريتها البحرية. وانتهى بذلك الدور المهيمن الذي لعبته أثينا في بحر إيجه خلال العقود السابقة.

لكن الهزيمة لم تمنح ثقافة المدينة أو مؤسساتها إلى الأبد، ولم تجعل إسبرطة قادرة على حكم اليونان كلها بلا مقاومة. لقد انتهت مرحلة من الهيمنة الأثينية، بينما دخل العالم اليوناني مرحلة جديدة من التنافس ستكشف بدورها حدود القوة الإسبرطية.

ما الذي غيّره الحرب في العالم اليوناني؟

لم تكن الحرب البيلوبونيسية مجرد صراع على الحدود أو الموانئ؛ فقد أضعفت المدن التي كانت قادرة على التعاون في مواجهة القوى الخارجية، وعمقت الشكوك بين اليونانيين، وأظهرت كيف يمكن أن تتحول التحالفات إلى

أدوات للسيطرة. كما كشفت الحرب عن التناقضات داخل المجتمعات اليونانية نفسها فالديمقراطية لم تمنع القرارات القاسية، والانضباط العسكري لم يضمن الانتصار، والثروة البحرية لم تحم أثينا من الهزيمة، والهيبة الإمبراطورية لم تمنحها القدرة على فرض الاستقرار الدائم. وتكشف رواية ثوقيديدس للحرب اهتمامًا غير مألوف في العالم القديم بتحليل الأسباب السياسية والاستراتيجية، ودراسة الخوف والمصلحة والطموح والقرارات التي يتخذها القادة تحت الضغط. لم يكتف بتسجيل أسماء المعارك؛ بل حاول تفسير كيف تراكمت الأزمات، وكيف أثرت الخيارات البشرية في مسار الأحداث.

أما الحياة اليومية، فقد دفعت ثمن الحرب عبر فقدان المحاصيل، والنزوح، والأوبئة، والأسر، وتدمير الممتلكات. ولم تكن آثار هذه التجارب موزعة بالتساوي؛ فقد امتلك الأغنياء وسائل أفضل لتحمل بعض الخسائر، بينما واجه الفقراء والجنود والمهجّرون مخاطر أشد. ومع نهاية الحرب، لم تكن اليونان قد أصبحت إمبراطورية واحدة، ولم تتوقف الصراعات بين المدن. بل أصبحت القوى المتنافسة أضعف في مجموعها، وأكثر اعتمادًا على التحالفات المتغيرة وعلى التدخل الخارجي. وهذا ما سيهيئ المجال لصعود قوى جديدة، ويجعل القرن الرابع قبل الميلاد مرحلة لا تقل اضطرابًا عن القرن الذي سبقه.

بعد سقوط أثينا إسبرطة تنتصر ولا تعرف كيف تحكم

الثلاثون حين دخل المنتصرون إلى المدينة المهزومة

عندما استسلمت أثينا عام ٤٠٤ قبل الميلاد، لم تقتصر آثار الهزيمة على تفكيك أسوارها البحرية وتقليص أسطولها. فقد تدخلت إسبرطة في نظامها السياسي، ودعمت إقامة حكومة أوليغارشية عُرفت باسم حكم الثلاثين، لأنها

تألفت من ثلاثين رجلاً تولوا إدارة المدينة بعد سقوط الديمقراطية. ارتبط هذا النظام باسم كريتياس، وهو أحد أبرز أعضائه، وكان معروفًا بآرائه السياسية المتشددة وصلاته بالدوائر الأثينية المناهضة للديمقراطية. وسرعان ما تحولت الحكومة الجديدة إلى سلطة قمعية؛ إذ صادرت ممتلكات، وأعدمت خصوصاً، وضيقت المشاركة السياسية، واستعانت بالقوة لإخضاع السكان.

لم يكن جميع الأثينيين مؤيدين للديمقراطية، كما لم يكن كل من عارضها مؤيداً للعنف الذي مارسه الثلاثون. لكن الحكم الجديد أظهر أن استبدال نظام سياسي بآخر لا يعني بالضرورة تحقيق الاستقرار، خصوصاً عندما يعتمد النظام الجديد على دعم قوة خارجية وعلى إقصاء شريحة واسعة من السكان. فرّ عدد من المعارضين من أثينا، وتجمع بعضهم في المنفى، ثم بدأوا مقاومة مسلحة بقيادة تراسيبولوس. وفي عام ٤٠٣ قبل الميلاد، تمكن أنصار الديمقراطية من استعادة السيطرة على المدينة بعد صراع داخلي انتهى بتراجع سلطة الثلاثين.

عادت الديمقراطية إلى أثينا، وأقرّ عفو سياسي هدفه منع الانتقام الواسع وإعادة الحياة العامة إلى مسارها. لم يشمل العفو جميع المسؤولين عن الجرائم بالطريقة نفسها، لكنه مثّل محاولة لوقف دائرة الثأر التي كان يمكن أن تعيد المدينة إلى حرب أهلية جديدة.

كانت التجربة درساً مؤلماً للأثينيين فقد هُزمت المدينة خارجياً، ثم انقسمت من الداخل، قبل أن تستعيد نظامها السياسي. ومع ذلك، لم تعد أثينا إلى موقعها السابق؛ إذ بقيت قوتها البحرية محدودة، وأصبح عليها أن تعيد بناء مكانتها في عالم تتنافس فيه إسبرطة وقوى أخرى على القيادة.

سقراط الفيلسوف في مدينة تبحث عن المسؤولين عن هزيمتها

بعد سنوات قليلة من استعادة الديمقراطية، واجهت أثينا قضية ستصبح من أشهر القضايا في تاريخ الفكر اليوناني. ففي عام ٣٩٩ قبل الميلاد، حوكم الفيلسوف سقراط بتهمة شملت عدم احترام آلهة المدينة وإفساد الشباب، وانتهت المحاكمة بالحكم عليه بالموت.

لم يترك سقراط مؤلفات مكتوبة، ولذلك نعرفه أساسًا من خلال كتابات تلاميذه، وخصوصًا أفلاطون وزينوفون، إضافة إلى إشارات أخرى في الأدب اليوناني. وتختلف صورة سقراط بين هذه المصادر، فلا يمكن التعامل مع أي رواية منها باعتبارها تسجيلًا محايدًا لكل ما حدث.

كان سقراط معروفًا بأسلوبه في الحوار وطرح الأسئلة التي تكشف التناقضات في تعريفات الناس للفضيلة والعدالة والمعرفة. وقد أثار هذا الأسلوب إعجاب بعض الشباب، لكنه جعل آخرين يرون فيه مصدر إزعاج أو تهديدًا للمكانة الاجتماعية والسياسية.

جاءت محاكمته في مدينة ما زالت تحمل آثار الحرب والهزيمة وحكم الثلاثين. وكان بعض الأشخاص المرتبطين بسقراط، أو الذين ارتبط اسمه بهم في نظر خصومه، قد شاركوا في اضطرابات سياسية سابقة. ومع ذلك، لا تثبت المصادر أن المحاكمة كانت مجرد انتقام مباشر بسبب هذه الصلات؛ فقد اجتمعت فيها اعتبارات دينية وسياسية وثقافية يصعب فصلها بصورة نهائية.

أمام هيئة من المواطنين، دافع سقراط عن نفسه، وفق الرواية التي قدمها أفلاطون في دفاع سقراط. وبعد إدانته، اختار المحلفون عقوبة الموت، ونُفذ الحكم بإعطائه السم، الذي تصفه الروايات بأنه شراب من الشوكران.

أصبحت وفاة سقراط لاحقاً رمزاً للتوتر بين حرية التفكير وسلطة المجتمع، لكنها تكشف أيضاً عن جانب أكثر تعقيداً من الحياة الأثينية. فقد استطاعت المدينة استعادة الديمقراطية، ومع ذلك لم تكن محصنة من محاكمة رجل اعتقد بعض مواطنيها أن تعاليمه تهدد قيمها.

ولا ينبغي اختزال القضية في مواجهة بسيطة بين فيلسوف حر ومدينة معادية للفكر؛ فسقراط كان جزءاً من الحياة العامة الأثينية، ومحاكمته جرت ضمن مؤسسات المدينة القانونية. لكن نهايته طرحت سؤالاً ظل حاضراً في تاريخ الفلسفة ما حدود حق المجتمع في محاسبة من يشكك في معتقداته وأفكاره؟

إسبرطة بعد النصر من قيادة الحلفاء إلى فرض السيطرة

خرجت إسبرطة من الحرب البيلوبونيسية باعتبارها القوة العسكرية الأبرز في اليونان، لكنها ورثت مشكلة لم تكن سهلة الحل. فإدارة تحالف من المدن ليست كإخضاعها، والقيادة التي تُقبل أثناء الحرب قد تتحول إلى عبء عندما يحاول المنتصر تحويلها إلى سيطرة دائمة.

أقامت إسبرطة حاميات في بعض المدن، ودعمت أنظمة سياسية موالية لها، وتدخلت في شؤون مناطق كانت قد تحررت من النفوذ الأثيني. كما حاولت الاستفادة من الأموال الفارسية التي ساعدتها في المرحلة الأخيرة من الحرب، رغم أن أهداف إسبرطة لم تكن مطابقة لأهداف الإمبراطورية الفارسية.

كانت فارس تريد استعادة نفوذها على المدن اليونانية في آسيا الصغرى، بينما احتاجت إسبرطة إلى الموارد التي تساعد على الاحتفاظ بتفوقها. وقد أظهر هذا التعاون أن الصراع بين اليونانيين لم يكن منفصلاً عن السياسة

الدولية؛ فالإمبراطورية الفارسية، التي واجهت غزوات يونانية قبل عقود، استطاعت الآن التأثير في موازين القوى داخل اليونان نفسها.

لم تكن إسبرطة تملك الموارد البحرية والإدارية التي امتلكتها أثينا في أوج قوتها، كما أن مجتمعا كان يعتمد على نظام اجتماعي شديد التفاوت، يقوم على خضوع الهيلوت، وهم السكان الزراعيون الذين عملوا في الأراضي المرتبطة بالمواطنين الإسبرطيين. وكانت المحافظة على هذا النظام الداخلي تتطلب قدرًا كبيرًا من الانضباط والرقابة.

وهكذا وجدت إسبرطة نفسها أمام تناقض واضح فقد انتصرت لأنها استطاعت استنزاف أثينا بمساعدة حلفاء وتمويل خارجي، لكنها احتاجت بعد النصر إلى موارد وتحالفات جديدة للحفاظ على مكانتها. وكلما اتسعت تدخلاتها، ازدادت احتمالات اصطدامها بمدن يونانية أخرى كانت تخشى أن تتحول هي أيضًا إلى مناطق خاضعة لها.

حرب كورنثوس التحالف الذي انقلب على إسبرطة

في عام ٣٩٥ قبل الميلاد، اندلعت حرب عُرفت باسم حرب كورنثوس، شاركت فيها قوى يونانية عدة ضد إسبرطة، من بينها أثينا وطيبة وكورنثوس وأرغوس، مع اختلاف المصالح والأهداف بين هذه المدن.

لم يكن التحالف الجديد اتحادًا دائمًا يقوم على اتفاق كامل، بل جمع أطرافًا رأت أن توسع إسبرطة يهدد مصالحها. وقد استفادت بعض هذه القوى من الدعم الفارسي، الذي أراد إضعاف الهيمنة الإسبرطية وإعادة توجيه الصراع بما يخدم المصالح الفارسية في بحر إيجه وآسيا الصغرى.

شهدت الحرب معارك برية وبحرية، وأظهرت أن تفوق إسبرطة لم يكن مطلقاً. ففي عام ٣٩٤ قبل الميلاد، خسر الأسطول الإسبرطي معركة كنيديوس أمام قوة بحرية قادها كونون، وهو قائد أثيني سابق ارتبط عمله في تلك المرحلة بالدعم الفارسي.

كان لهذا الانتصار أثر مهم؛ إذ تراجعت قدرة إسبرطة على فرض سيطرتها البحرية، وبدأت أثينا تستعيد جزءاً من مكانتها، وإن لم تستعد إمبراطوريتها السابقة. كما أعاد كونون بناء أجزاء من أسوار أثينا بدعم فارسي، في مشهد يعكس تغير التحالفات فالمدينة التي ساعدت في مقاومة الغزو الفارسي أصبحت تستفيد من المال الفارسي لإضعاف إسبرطة.

استمرت الحرب عدة سنوات، ولم تنتهِ بانتصار شامل لطرف واحد. وفي عام ٣٨٧ أو ٣٨٦ قبل الميلاد، أبرم اتفاق عُرف باسم صلح الملك، نسبة إلى الملك الفارسي أردشير الثاني، ويُعرف أيضاً باسم السلام الملكي.

نص الاتفاق على خضوع المدن اليونانية في آسيا الصغرى للملك الفارسي، مع إعلان استقلال المدن اليونانية الأخرى، مع استثناءات وشروط أتاحت لإسبرطة الاحتفاظ بدور مهيمن في تفسير الاتفاق وتنفيذه. وهكذا استخدمت فارس سلطتها ومواردها للتأثير في النظام السياسي اليوناني، بينما قبلت المدن المتنافسة تسوية لم تحقق استقلالاً متساوياً للجميع.

تكشف هذه الحرب أن الصراع اليوناني لم يكن مجرد مواجهة بين أثينا وإسبرطة؛ فقد كانت هناك مدن أخرى تمتلك جيوشاً ومصالح مستقلة، وكانت الإمبراطورية الفارسية قادرة على تغيير ميزان القوى بالمال والدبلوماسية، حتى من دون احتلال اليونان كلها.

طيبة القوة التي خرجت من ظل المدن الكبرى

كانت طيبة، الواقعة في إقليم بيوتيا بوسط اليونان، من المدن القديمة المهمة، لكنها لم تكن دائماً في موقع يسمح لها بمنافسة أثينا أو إسبرطة على قيادة العالم اليوناني. وقد امتلكت المنطقة المحيطة بها موارد زراعية وموقعاً استراتيجياً، بينما اتسمت علاقتها بالمدن المجاورة، ولا سيما أثينا، بالتنافس والتحالف المتغير.

في العقود التي أعقبت الحرب البيلوبونيسية، زادت إسبرطة تدخلها في شؤون طيبة وبيوتيا. وفي عام ٣٨٢ قبل الميلاد، استولى قائد إسبرطي على قلعة كادمية في طيبة، مستفيداً من صراع سياسي داخلي. وأثار هذا التدخل استياءً واسعاً لدى خصوم إسبرطة، إذ بدا أن المدينة المنتصرة تستخدم القوة لفرض أنظمة موالية لها حتى على حلفائها السابقين.

وفي عام ٣٧٩ قبل الميلاد، تمكنت مجموعة من المنفيين الطيبين، بدعم من أنصارهم داخل المدينة، من الإطاحة بالحكم الموالي لإسبرطة وطردها الحامية الإسبرطية. وكان هذا الحدث بداية مرحلة جديدة في تاريخ طيبة، إذ بدأت المدينة بإعادة تنظيم قوتها العسكرية والسياسية، وبناء تحالفات تحد من النفوذ الإسبرطي. برز في هذه المرحلة اسمان سيصبحان من أبرز القادة اليونانيين في القرن الرابع قبل الميلاد إيبامينونداس وبيليوبيداس. لم يكونا ملكين، بل قائدين سياسيين وعسكريين ارتبط صعودهما بتغيرات في تنظيم الجيش وبقدرة طيبة على الاستفادة من لحظة ضعف خصومها. امتلكت طيبة تقاليد عسكرية سابقة، لكن قاداتها في هذه المرحلة طوروا أساليب في استخدام القوات، وأعادوا النظر في كيفية توزيع الجنود على خطوط القتال. ولم يكن التحول مجرد زيادة عدد المحاربين؛ بل تعلق بكيفية تركيز القوة في

موضع محدد من الجبهة، وباستخدام الوحدات الأكثر تدريباً لتحقيق اختراق يمكن أن يغيّر نتيجة المعركة.

الكتيبة المقدسة (وحدة عسكرية أصبحت جزءاً من الذاكرة اليونانية)

ارتبط اسم طيبة بما عُرف باسم الكتيبة المقدسة، وهي وحدة عسكرية نخبوية قيل إن عدد أفرادها بلغ ثلاثمائة مقاتل، أي نحو مئة وخمسين زوجاً من الرجال، وفق روايات قديمة. وقد وصفها بلوتارخ لاحقاً بأنها وحدة تتكون من أزواج تربط بينهم علاقة عاطفية، وأن هذه الروابط كان يُعتقد أنها تزيد من استعدادهم للدفاع بعضهم عن بعض في القتال.

العلاقات بين الرجال في اليونان القديمة

لم تكن العلاقات العاطفية بين الرجال ظاهرة مستحدثة في العصر الحديث؛ فقد عرفها المجتمع اليوناني القديم، وتشهد عليها النصوص الأدبية والفلسفية والرسوم على الأواني الفخارية. وتُعدّ الكتيبة المقدسة في طيبة من أشهر الأمثلة التي ارتبطت بهذه المسألة، إذ نقل بلوتارخ رواية تفيد بأن أفرادها كانوا أزواجاً من العشاق والمحبوبين، وأن الروابط بينهم عُدتّ مصدراً للشجاعة والتماسك في القتال. ومع ذلك، لا ينبغي تعميم هذه الرواية على جميع أفراد الكتيبة بوصفها حقيقة مؤكدة. كما أن العلاقات بين الرجال في اليونان القديمة لم تكن جميعها متشابهة، واختلفت أشكالها ونظرة المجتمع إليها باختلاف الأدوار الاجتماعية والأعمار والظروف. ومن المهم أيضاً ألا نُسقط التصنيفات الحديثة للهوية الجنسية على مجتمع كانت له مفاهيم وأعراف مختلفة عن مفاهيمنا اليوم.

لكن التفاصيل المتعلقة بتكوين الكتيبة وتاريخها المبكر تعتمد بدرجة كبيرة على مصادر قديمة كُتبت بعد الأحداث، ولذلك ينبغي الحذر من التعامل مع جميع الروايات باعتبارها حقائق مؤكدة. كما أن تفسير دوافع المقاتلين لا يمكن اختزاله في سبب واحد؛ فقد كانت الولاءات المدنية والتدريب والانضباط العسكري والارتباطات الشخصية عوامل محتملة في تماسك الوحدات.

اكتسبت الكتيبة شهرتها بسبب دورها في الحروب التي خاضتها طيبة ضد إسبرطة، ثم ارتبط اسمها بصورة خاصة بمعركة ليوكترا عام ٣٧١ قبل الميلاد. وفي الذاكرة اللاحقة أصبحت مثالاً على وحدة عسكرية تعتمد على التدريب والتماسك، وعلى فكرة أن العلاقات بين المقاتلين قد تؤثر في استعدادهم للمخاطرة في ساحة القتال.

لكن أهمية الكتيبة لا تعني أن الجيش الطيبي كله كان مؤلفاً منها، أو أن انتصارات طيبة يمكن تفسيرها بوجود هذه الوحدة وحدها. فقد جاءت نتائج المعارك من تفاعل القيادة والتكتيك والموارد والظروف السياسية، لا من عامل منفرد.

ليوكترا الهزيمة التي كسرت هيبة إسبرطة

في عام ٣٧١ قبل الميلاد، واجه جيش طيبة الجيش الإسبرطي وحلفاءه في معركة ليوكترا. كانت إسبرطة لا تزال تتمتع بسمعة عسكرية كبيرة، لكن طيبة دخلت المواجهة بقيادة إيبامينونداس، الذي استخدم أسلوباً في ترتيب القوات ساعد على قلب موازين المعركة.

بدل توزيع القوة بالتساوي على امتداد خط القتال، ركز إيبامينونداس عدداً كبيراً من قواته في جناح واحد، وجعل هذا الجناح أعمق وأقوى من المعتاد.

وقد سمح له ذلك بمواجهة القسم الأكثر أهمية من الجيش الإسبرطي بقوة مركزة، بينما لم يكن الهدف تحقيق ضغط متساوٍ في كل موضع من الجبهة.

كان في هذا الأسلوب تطوير لفكرة عسكرية أقدم، لا اختراعًا منفصلًا عن كل ما سبقه. غير أن طريقة تطبيقه في ليوكترا جعلت أثره حاسمًا. فقد تعرضت القوات الإسبرطية لهزيمة ثقيلة، وقُتل عدد من مواطني إسبرطة الذين كانوا يشكلون نخبة الجيش.

كانت الصدمة كبيرة لأن إسبرطة بنت جزءًا أساسيًا من مكانتها على الاعتقاد بأن جيشها يصعب التغلب عليه في المعارك البرية. ولم تكن الهزيمة مجرد خسارة ميدانية؛ بل أضعفت الهيبة التي اعتمدت عليها إسبرطة في إخضاع الحلفاء والتدخل في شؤون المدن الأخرى.

لم تختفِ إسبرطة بعد ليوكترا، لكنها فقدت موقعها باعتبارها القوة التي لا ينازعها أحد في البر اليوناني. وفي المقابل، صعدت طيبة إلى موقع قيادي لم يكن متاحًا لها من قبل، وبدأت مرحلة قصيرة لكنها شديدة التأثير في تاريخ اليونان.

تحرير ميسينيا ضربة للنظام الإسبرطي

بعد انتصار طيبة، قاد إيبامينونداس حملات إلى البيلوبونيز، ووصلت قواته إلى مناطق كانت إسبرطة تعتمد عليها في قوتها. وكان من أهم التطورات تأسيس مدينة ميسينيا عام ٣٦٩ قبل الميلاد تقريبًا، وإعادة تنظيم المجتمع الميسيني بعد قرون من الخضوع الإسبرطي.

ارتبطت ميسينيا بأرض زراعية واسعة، وكان سكانها من أهم الجماعات التي أخضعها الإسبرطيون وحولوها إلى هيلوت. وقد وفرت أعمالهم الزراعية

جزءاً أساسياً من الموارد التي سمحت للمواطنين الإسبرطيين بالتفرغ للتدريب العسكري والمشاركة في الحياة السياسية. لم يكن تحرير ميسينيا حدثاً عسكرياً فحسب؛ بل أصاب الأساس الاقتصادي والاجتماعي للنظام الإسبرطي. ففقدان السيطرة على الأراضي والسكان الذين عملوا فيها قلّص الموارد المتاحة لإسبرطة، كما أن قيام مجتمع ميسيني مستقل جعل من الصعب إعادة فرض السيطرة القديمة من دون خوض حروب جديدة.

وشهدت المرحلة نفسها تأسيس أو إعادة تنظيم مراكز أخرى، من بينها ميغالوبوليس، بهدف إقامة توازن سياسي وعسكري في البيلوبونيز والحد من قدرة إسبرطة على السيطرة على المنطقة.

تكشف هذه الأحداث أن انتصار طيبة لم يعتمد على هزيمة الجيش الإسبرطي في ساحة القتال فقط؛ فقد استهدفت القيادة الطيبية أيضاً شبكة الموارد والتحالفات التي دعمت الهيمنة الإسبرطية. ومع ذلك، لم يؤدّ إضعاف إسبرطة إلى إنشاء نظام مستقر تتفق عليه المدن اليونانية؛ إذ بقي التنافس قائماً، واستمرت الخلافات بشأن القيادة والتحالفات.

مانتينيا لا مدينة تستطيع الاحتفاظ بالهيمنة طويلاً

في عام ٣٦٢ قبل الميلاد، وقعت معركة مانتينيا في البيلوبونيز، وشاركت فيها طيبة وحلفاؤها ضد تحالف ضم إسبرطة وأثينا وقوى أخرى. وجاءت المعركة في سياق محاولات متنافسة لإعادة تشكيل موازين القوى بعد صعود طيبة. حققت قوات طيبة وحلفاؤها نجاحاً عسكرياً في المعركة، لكن إيبامينونداس أصيب إصابة قاتلة وتوفي بعد ذلك. وكان موته خسارة كبيرة للمدينة؛ لأنه لم يكن مجرد قائد ميداني، بل شخصية ساهمت في صياغة السياسة الطيبية وفي تطوير أساليبها العسكرية. لم تنتج المعركة نصراً

سياسيًا حاسمًا يفرض نظامًا جديدًا على اليونان. فقد خرجت المدن المتنافسة من سنوات الصراع مرهقة، وبقيت الخلافات حول التحالفات والحدود والقيادة من دون تسوية دائمة.

وهكذا انتهت مرحلة الهيمنة الطيبية من دون أن تتحول طيبة إلى قوة قادرة على توحيد اليونان. فقد استطاعت كسر التفوق الإسبرطي وإعادة تشكيل الخريطة السياسية، لكنها لم تتمكن من بناء نظام مستقر يجمع المدن تحت قيادة مقبولة على نطاق واسع.

كانت هذه النتيجة من أهم سمات القرن الرابع قبل الميلاد انتقلت القيادة من مدينة إلى أخرى، لكن الانتقال لم يمهّد المنافسة. فبعد أثينا، برزت إسبرطة؛ وبعد إسبرطة، صعدت طيبة؛ ثم واجهت المدن جميعها حقيقة أن القوة العسكرية وحدها لا تكفي لإنشاء وحدة سياسية دائمة.

ومن هنا تنهياً الظروف لظهور قوة تقع إلى الشمال من المدن اليونانية، خارج مركز الصراع التقليدي بين أثينا وإسبرطة وطيبة هي مقدونيا. غير أن صعودها لم يكن نتيجة تفوق عسكري مفاجئ فحسب؛ فقد سبقه تغير في بنية الحكم والجيش والدبلوماسية، وهو ما سيجعل عهد فيليب الثاني مرحلة فاصلة في تاريخ العالم اليوناني.

مقدونيا المملكة التي غيّرت ميزان العالم اليوناني

مملكة على أطراف العالم اليوناني لم تكن مقدونيا في القرن الخامس قبل الميلاد تشبه المدن اليونانية التي اعتادت إدارة شؤونها من خلال مجالس المواطنين والجمعيات السياسية. فقد كانت مملكة تقع شمال اليونان، وتمتد أراضيها بين السهول الخصبة والجبال والوديان، وتجاور مناطق سكنتها

جماعات ذات لغات وتقاليدها متعددة. ارتبطت مقدونيا بالعالم اليوناني من خلال التجارة والدين والأدب والمنافسات السياسية، لكن مكانتها كانت موضع جدل. فقد عدها بعض اليونانيين جزءاً من عالمهم، بينما نظر إليها آخرون باعتبارها مملكة شمالية تختلف عن مدنهم في أسلوب الحكم والعادات السياسية. ولا يصح اختزال هذا الاختلاف في حكم قاطع على هوية جميع سكان المنطقة؛ فقد تغيرت العلاقات بين مقدونيا والمدن اليونانية عبر الزمن، كما اختلفت مواقف اليونانيين أنفسهم منها.

كانت مقدونيا غنية بالموارد التي تمنحها أهمية استراتيجية، ومنها الأخشاب المستخدمة في بناء السفن، والمعادن، والأراضي الزراعية الواسعة. كما كان موقعها يسمح لها بالتأثير في الطرق التي تربط وسط اليونان بشمال بحر إيجه والبلقان. ومع ذلك، لم تكن المملكة في بدايات القرن الرابع قبل الميلاد قوة لا تُقهر. فقد واجهت صراعات على العرش، وتدخلات من جيرانها، وضغوطاً من جماعات مختلفة داخل حدودها وخارجها. وكان بقاء الملك يعتمد على قدرته في الحفاظ على ولاء النبلاء والقادة المحليين، وبناء جيش قادر على مواجهة الخصوم، وعقد التحالفات حين تكون الحرب مكلفة.

وهذا ما يجعل صعود مقدونيا جديراً بالدراسة فالمملكة لم تنتصر لأنها امتلكت موارد طبيعية فقط، بل لأن أحد ملوكها استطاع تحويل هذه الموارد إلى قوة عسكرية وسياسية أكثر انتظاماً.

فيليب الثاني الملك الذي أعاد بناء المملكة

وُلد فيليب الثاني، والد الإسكندر الأكبر، نحو عام ٣٨٢ قبل الميلاد. وتولى الحكم عام ٣٥٩ قبل الميلاد في ظروف صعبة، بعد مقتل أخيه الملك بيرديكاس الثالث في حرب ضد الإيليريين، وهي جماعات كانت تعيش في

مناطق غرب مقدونيا وشمالها. كانت المملكة مهددة من جهات متعددة، ولم يكن فيليب قادرًا على التعامل مع جميع خصومه بالقوة العسكرية وحدها. لذلك بدأ بتثبيت سلطته داخليًا، وعقد اتفاقات، واستخدم الزواج السياسي لبناء علاقات مع الأسر الحاكمة المجاورة.

لم تكن هذه الزيجات مجرد شأن عائلي؛ فقد كانت وسيلة دبلوماسية لتقليل احتمالات الحرب، وتثبيت التحالفات، وربط المصالح بين الأسر الحاكمة. لكن التحالفات التي تُبنى بهذه الطريقة قد تتغير عندما تتبدل المصالح أو يظهر صراع على العرش، ولذلك لم تكن بديلًا دائمًا عن القوة العسكرية.

عمل فيليب أيضًا على تطوير الجيش المقدوني، وهو التحول الذي سيصبح أحد أهم أسباب نجاح المملكة لاحقًا. ولم يكتفِ بتجميع المقاتلين وقت الحرب، بل سعى إلى تنظيم قوات أكثر قدرة على التدريب المستمر، وإلى تنسيق عمل المشاة والفرسان وأسلحة الحصار ضمن منظومة واحدة.

ومع اتساع سلطته، لم تعد مقدونيا مضطرة إلى الاكتفاء بالدفاع عن حدودها. فقد بدأت تتدخل في شؤون المناطق المجاورة، وتتنافس على الموانئ والطرق التجارية، وتفرض شروطها على بعض المدن. وبذلك تحولت المملكة تدريجيًا من قوة إقليمية تواجه خطر التفكك إلى قوة تستطيع التأثير في موازين السياسة اليونانية.

الكتيبة المقدونية الساريسا وتغيير شكل المعركة

من أبرز ما ارتبط بإصلاحات فيليب تطوير استخدام الرمح الطويل المعروف باسم الساريسا، الذي أصبح علامة مميزة للمشاة المقدونيين. وكان أطول بكثير من الرماح المعتادة لدى كثير من قوات المشاة اليونانية، الأمر الذي

سمح للصفوف الأمامية بإبقاء خصومها على مسافة قبل وصولهم إلى مدى السيوف والأسلحة الأقصر.

تطلب استخدام هذا الرمح تدريباً وانضباطاً. فالمقاتل الذي يحمل سلاحاً طويلاً يحتاج إلى الحفاظ على موقعه، والتقدم مع رفاقه، والاستجابة لأوامر القادة. وإذا تفكك الصف أو فقد توازنه، فقد تتحول ميزة السلاح إلى عبء.

اعتمد الجيش المقدوني على تشكيل كثيف من المشاة، يُعرف عادة باسم الكتيبة أو الفالانكس المقدونية. وكان الجنود يحملون دروعاً أصغر نسبياً من بعض دروع المشاة الثقيلة التقليدية، بما يساعدهم على التعامل مع الرماح الطويلة والحفاظ على انتظام الصفوف.

لكن الساريسا لم تكن سلاحاً سحرياً يضمن النصر في كل مواجهة. فقد كانت الكتيبة الثقيلة أكثر فاعلية عندما تحافظ على انتظامها وتقاتل في أرض مناسبة، بينما تصبح أكثر عرضة للخطر على التضاريس الوعرة أو إذا تعرضت جوانبها للهجوم. لهذا كان نجاح الجيش المقدوني يعتمد على التنسيق بين وحداته. فالمشاة يثبتون خط القتال ويشغلون قوات الخصم، بينما تستطيع الفرسان استغلال الثغرات أو مهاجمة الجناح، وتستخدم القوات الخفيفة والرماة بحسب ظروف المعركة. كما أتاح تنظيم القيادة والتدريب لفيليب أن يوظف هذه العناصر بصورة أكثر تكاملاً.

لم يخترع المقدونيون كل هذه الأفكار من الصفر؛ فقد عرف اليونانيون التشكيلات الكثيفة والفرسان والأسلحة المتنوعة من قبل. لكن فيليب جمع عناصر موجودة وطوّرها ضمن نظام عسكري شديد الفاعلية، ثم استفاد من نجاحاته في توسيع موارد المملكة وإخضاع خصومها.

مناجم الذهب والفضة كيف مؤلت مقدونيا توسعها؟

كان المال عنصرًا أساسيًا في سياسة فيليب. فقد منحته الموارد المعدنية، ولا سيما مناجم الذهب والفضة في المناطق التي سيطر عليها، قدرة أكبر على دفع أجور الجنود وتمويل الحملات العسكرية.

ومن أهم المناطق المرتبطة بهذا التحول منطقة جبل بانغايوس وما جاورها في تراقيا، حيث توجد موارد معدنية قيّمة. وقد ساعدت السيطرة على هذه الموارد في تعزيز الخزانة الملكية، وإن كانت تفاصيل الإنتاج وحجم العائدات تختلف باختلاف الفترات والمصادر القديمة.

أتاح التمويل المستقر نسبيًا لفيليب الاحتفاظ بقوات أكثر جاهزية، بدل الاعتماد الكامل على تعبئة المقاتلين لفترات قصيرة. كما مكّنه من الاستعانة بالمهندسين وصانعي آلات الحصار، وتوفير الإمدادات، والتحرك في حملات تتطلب وقتًا وتخطيطًا.

لم يكن التوسع المقدوني عسكريًا فقط؛ فقد ارتبط أيضًا بالسيطرة على الموانئ وطرق التجارة ومناطق إنتاج الحبوب والأخشاب. وكانت كل منطقة جديدة يمكن أن تمنح المملكة موارد إضافية، لكنها قد تخلق في الوقت نفسه خصومًا جددًا يحتاجون إلى الردع أو التحالف أو الإخضاع. وبذلك نشأت دائرة متبادلة بين المال والجيش الموارد تمّول القوة العسكرية، والانتصارات تفتح المجال أمام موارد جديدة، ثم تُستخدم هذه الموارد لتوسيع النفوذ. غير أن هذه الدائرة كانت تعتمد على استمرار النجاح؛ فالحرب الطويلة أو فقدان المناطق الغنية قد يهددان النظام كله.

أثينا وفيليب خصومة بدأت بالمصالح قبل أن تصبح مواجهة كبرى

لم تكن أثينا في القرن الرابع قبل الميلاد مجرد مدينة مهزومة فقدت إمبراطوريتها. فقد استعادت جزءاً من نشاطها السياسي والبحري، واحتفظت بثقل ثقافي وتجاري، وظلت قادرة على عقد التحالفات والتأثير في المدن الأخرى. لكن مصالح أثينا اصطدمت تدريجياً بتوسع مقدونيا. فقد كانت الموانئ وطرق الإمداد ومناطق استخراج الموارد عناصر مهمة للطرفين، كما أن تقدم فيليب نحو الشمال الشرقي من بحر إيجه هدد مصالح أثينا في المنطقة. برز الخطيب الأثيني ديموستينيس بوصفه من أشد المعارضين لتوسع فيليب. وقد ألقى خطاباً حذر فيها مواطنيه من خطورة السماح للملك المقدوني بتوسيع نفوذه على حساب المدن اليونانية. وعُرفت مجموعة من هذه الخطب باسم الفيليبات، نسبة إلى فيليب.

كانت خطب ديموستينيس نصوصاً سياسية تهدف إلى إقناع الجمهور باتخاذ إجراءات محددة، وليست وصفاً محايداً لجميع دوافع فيليب أو سياساته. ومع ذلك، فهي مصدر مهم لفهم الخوف الذي أثاره صعود المملكة داخل أثينا، ولروية كيف حاول السياسيون حشد المواطنين في مواجهة خطر لم يتفق الجميع على تقديره بالطريقة نفسها. في المقابل، لم يكن جميع الأثينيين متفقين على أن الحرب المفتوحة مع مقدونيا هي الخيار الأفضل. فقد رأى بعضهم أن التفاوض والتحالف قد يكونان أقل كلفة، بينما خشي آخرون أن تتحول التسويات المؤقتة إلى وسيلة يوسع بها فيليب سيطرته خطوة بعد أخرى. وهكذا لم تكن المواجهة بين أثينا ومقدونيا صراعاً بين طرف موحد وطرف آخر موحد تماماً؛ بل دارت داخل المدن نفسها نقاشات حول الحرب والسلام، والمصلحة والكرامة السياسية، وحدود التنازل الذي يمكن قبوله.

خيرونيا المعركة التي غيّرت مستقبل المدن اليونانية

في عام ٣٣٨ قبل الميلاد، واجه جيش فيليب الثاني تحالفًا ضم أثينا وطيبة وقوى يونانية أخرى في معركة خيرونيا بوسط اليونان.

كانت المواجهة حاسمة في إضعاف قدرة المدن المشاركة على مقاومة النفوذ المقدوني. وقد استفاد الجيش المقدوني من التنظيم والتنسيق بين وحداته، بينما شارك في القتال الإسكندر، ابن فيليب، الذي كان لا يزال شابًا. وتربط المصادر القديمة بينه وبين قيادة قوة من الفرسان، لكن التفاصيل الدقيقة لتوزيع القوات وأدوار القادة ينبغي قراءتها في ضوء طبيعة الروايات التي وصلتنا.

انتهت المعركة بانتصار فيليب. وكانت طيبة قد أرسلت إلى القتال قوات مهمة، من بينها الكتيبة المقدسة، التي ارتبطت شهرتها بمقاومة الخصوم حتى سقوط عدد كبير من أفرادها. وتروي المصادر اللاحقة أن رجال الكتيبة قُتلوا في المعركة، وأن موضع دفنهم ارتبط لاحقًا بالنصب المعروف باسم أسد خيرونيا. لم تكن النتيجة مجرد انتصار عسكري آخر. فقد أصبحت المدن اليونانية أمام حقيقة أن مقدونيا تستطيع هزيمة تحالف يجمع بعضًا من أهم القوى العسكرية والسياسية في بلادهم. ومع ذلك، لم يقرر فيليب محو المدن المهزومة أو تحويلها كلها إلى مقاطعات مقدونية مباشرة. فقد احتفظت مدن كثيرة بمؤسساتها المحلية، لكن قدرتها على اتخاذ قرارات مستقلة في السياسة الخارجية أصبحت محدودة بفعل التفوق المقدوني. كانت هذه نقطة التحول الكبرى لم تعد مقدونيا قوة تتدخل في الصراعات اليونانية من الخارج فحسب، بل أصبحت القوة التي تستطيع تحديد الإطار السياسي الذي تعمل ضمنه المدن.

رابطة كورنثوس اتحاد تحت قيادة مقدونية

بعد انتصاره، عمل فيليب على تنظيم العلاقة بين مقدونيا والمدن اليونانية من خلال تحالف عُرف باسم رابطة كورنثوس، التي تشكلت عام ٣٣٧ قبل الميلاد تقريبًا. وجاءت الرابطة في أعقاب اجتماع للقوى اليونانية في كورنثوس، حيث أُعلن إطار مشترك للتعاون والسلام.

قدمت الرابطة نفسها بوصفها نظامًا يحافظ على السلام العام بين الأعضاء، ويحظر الحروب الداخلية، وينظم العلاقات السياسية والعسكرية. لكن موقع فيليب كان محوريًا؛ فقد أصبح قائدًا للقوات المشتركة، ولم تكن الرابطة اتحادًا متساويًا تمامًا بين مدن مستقلة.

احتفظت المدن الأعضاء بدرجات متفاوتة من الحكم المحلي، إلا أن قدرتها على تحدي القيادة المقدونية كانت مقيدة بتوازن القوة الذي نشأ بعد خيرونيا. وهكذا جمعت الرابطة بين لغة الوحدة والمصلحة المشتركة، وبين واقع سياسي يقوم على تفوق المملكة التي فرضت هذا النظام.

كانت فكرة توحيد المدن اليونانية في حملة ضد الإمبراطورية الفارسية جزءًا مهمًا من المشروع. فقد سبق أن شهدت العلاقات بين اليونانيين والفرس حروبًا وغزوات وتحالفات متغيرة، وكان فيليب قادرًا على تقديم الحملة المقبلة بوصفها انتقامًا من الغزو الفارسي السابق، أو مشروعًا لتوسيع النفوذ والثروة، أو الأمرين معًا. لكن هذه الخطط لم تتحول كلها إلى واقع في حياة فيليب. ففي عام ٣٣٦ قبل الميلاد، قُتل الملك خلال احتفال في مدينة إيجة المقدونية، قبل أن يقود الحملة الكبرى إلى آسيا. وتختلف الروايات القديمة في تفاصيل المؤامرة ودوافع القاتل، لذلك لا يمكن الجزم بأن عملية الاغتيال كانت نتيجة سبب واحد أو أن جميع ملابساتها معروفة.

بموته، ترك فيليب لابنه مملكة أقوى بكثير مما كانت عليه عند توليه الحكم، وجيشاً منظماً، ونفوذاً واسعاً في اليونان، وخطة للتوسع نحو الإمبراطورية الفارسية. لكنه ترك أيضاً تحدياً كبيراً هل يستطيع الوريث الاحتفاظ بكل ما بناه أبوه، أم أن التحالفات والممالك التي خضعت للمقدونية ستستغل انتقال السلطة للتمرد؟

الإسكندر يتولى الحكم بداية مرحلة جديدة

تولى الإسكندر العرش المقدوني عام ٣٣٦ قبل الميلاد، وكان في العشرين من عمره تقريباً. لم يبدأ حكمه من فراغ؛ فقد تلقى تدريباً عسكرياً وسياسياً، وشارك في بعض الحملات، وكان محاطاً بقيادة وضباط اكتسبوا خبرة في عهد والده. ومع ذلك، لم يكن انتقال الحكم مضموناً. فقد واجه الإسكندر ضرورة تثبيت سلطته داخل الأسرة الحاكمة وبين النبلاء المقدونيين، ثم التعامل مع المدن اليونانية التي رأت في موت فيليب فرصة للتخلص من الهيمنة المقدونية. تحرك الإسكندر بسرعة لتأكيد سلطته، ثم واجه تمردات واضطرابات في مناطق مختلفة. وفي عام ٣٣٥ قبل الميلاد، قاد حملة إلى الشمال لمواجهة جماعات هددت حدود المملكة، ثم عاد إلى اليونان بعد انتشار أنباء عن تمرد طيبة. أعلنت طيبة العصيان، اعتقاداً منها أن غياب فيليب ومشكلات انتقال الحكم قد أضعفا مقدونيا. لكن الإسكندر وصل بقواته سريعاً، وحاصر المدينة، ثم استولى عليها في العام نفسه. كانت النتيجة قاسية دُمّرت أجزاء واسعة من طيبة، وقُتل عدد كبير من سكانها، واستُبعد كثيرون بحسب الروايات القديمة. وقد استُثنت بعض المواقع والمباني، ومنها منزل الشاعر بندار، في تقليد يربط بين ذلك واحترام الإسكندر للشاعر.

وتختلف تفاصيل الأحداث وأعداد الضحايا بين المصادر، لذلك لا ينبغي التعامل مع كل رقم ورد في الروايات القديمة باعتباره إحصاءً دقيقاً.

كان تدمير طيبة رسالة واضحة إلى بقية المدن لن يكون من السهل تحدي القيادة المقدونية، وأن الانقسام داخل العالم اليوناني قد يجعل مقاومة المملكة أكثر خطورة. لكنه كان أيضاً حدثاً ذا آثار إنسانية عميقة، إذ تحولت مدينة لها تاريخ طويل ومكانة دينية وثقافية إلى مثال على الثمن الذي قد يدفعه السكان عندما يُهزمون في صراع سياسي وعسكري.

بعد إخضاع طيبة، استطاع الإسكندر تثبيت موقعه داخل اليونان، وتجديد دوره قائداً للحملة المشتركة ضد فارس. وبذلك اكتملت مرحلة من التحول بدأت بإصلاحات فيليب، ووصلت إلى لحظة أصبح فيها الملك المقدوني مستعداً لعبور بحر إيجه، لا لمجرد التدخل في شؤون المدن اليونانية، بل لمواجهة واحدة من أكبر الإمبراطوريات في العالم القديم.

لم يكن الإسكندر قد بنى إمبراطوريته بعد؛ كانت أمامه حملة ستغير حدود العالم المعروف لليونانيين، وستفتح أبواباً جديدة للتبادل الثقافي والسياسي، كما ستخلق أشكالاً من الحكم والمجتمع لم تكن المدن اليونانية قد عرفتها من قبل. لكن فهم تلك المرحلة يتطلب أولاً فهم المملكة والجيش والتحالفات التي ورثها عن فيليب، لأنها كانت الأساس الذي انطلقت منه فتوحاته.

من مقدونيا إلى آسيا

الجيش الذي حمل الإسكندر إلى حدود العالم المعروف

الجيش المقدوني في الحياة اليومية

ما وراء السلاح والمعركة لم يكن الجيش المقدوني الذي ورثه الإسكندر مجرد مجموعة من المقاتلين يجتمعون عند إعلان الحرب، بل أصبح في عهد فيليب الثاني قوة منظمة تحتاج إلى التدريب المستمر والإمداد والتمويل والتنسيق بين وحدات مختلفة. وكان نجاحها يعتمد على ما يجري خارج ساحة المعركة بقدر ما يعتمد على ما يجري داخلها.

تختلف تفاصيل حياة الجنود باختلاف رتبهم ووحداتهم وظروف الحملات، ولا تسمح المصادر القديمة بإعادة بناء يوم واحد موحد عاشه كل جندي مقدوني. لكن طبيعة الجيش والحملات المعروفة تتيح فهم جوانب أساسية من حياتهم اليومية.

الاستيقاظ والتدريب والانضباط

كان الجندي يحتاج إلى الحفاظ على لياقته، والتدريب على استخدام سلاحه، والتعود على الحركة ضمن تشكيل جماعي. ولم يكن حمل الساريسا الطويلة أمراً بسيطاً؛ إذ تطلبت التعامل مع الرمح والدرع، والحفاظ على التوازن والمسافة بين المقاتلين، قدرًا من الممارسة والانضباط.

وكانت الكتيبة المقدونية تعتمد على تماسك الصفوف. فإذا تقدم جندي قبل الآخرين أو تراجع في لحظة حرجية، أمكن أن يفتح ثغرة يستغلها الخصم. لذلك لم تكن مهارة المقاتل الفردية كافية وحدها؛ بل كان عليه أن يتحرك وفق

إيقاع وحدته وأن يستجيب للأوامر. أما الفرسان، فكانت لهم متطلبات مختلفة، تتعلق بركوب الخيل والتحكم بها والتدريب على المناورة والقتال. وكان الحفاظ على الخيول جزءاً من الاستعداد العسكري، لأنها تحتاج إلى الطعام والماء والراحة، وقد يؤدي فقدانها إلى تقليص قدرة الوحدة على الحركة والقتال. ولا يعني ذلك أن كل يوم كان مخصصاً للتدريب وحده. ففي الحملات الطويلة كان على الجيش أن يوازن بين التدريب والمسير والراحة، وأن يتعامل مع الطقس والتضاريس وتوافر المياه والمؤن.

الطعام والماء مشكلة لا تقل أهمية عن السلاح

كان توفير الطعام للجنود أحد التحديات الأساسية لأي جيش يتحرك لمسافات طويلة. احتاج المقدونيون إلى الحبوب والخبز أو الأطعمة المصنوعة منها، وإلى الماء، وإلى موارد إضافية بحسب المنطقة والظروف. وكان الزيت والنبيد وبعض الأغذية الأخرى من مكونات النظام الغذائي في العالم اليوناني، لكن لا ينبغي افتراض أن جميع الجنود تناولوا الأصناف نفسها أو بالكميات نفسها. كان الجيش يحصل على المؤن من مصادر متعددة ما يحمله معه، وما يُنقل إليه من قواعد الإمداد، وما يُشترى من المناطق التي يمر بها، وما يُجمع أو يُصادر في بعض الحملات. وكانت هذه الوسائل تختلف باختلاف طبيعة الأرض ووجود المدن والأسواق وقدرة القادة على تأمين طرق النقل.

ولم يكن العثور على الطعام يعني بالضرورة وجود ما يكفي للجميع. فالحبوب قد تكون متوافرة في منطقة، بينما يصعب نقلها إلى منطقة أخرى، وقد يؤدي طول المسير أو مقاومة السكان المحليين إلى قطع الإمدادات. وإذا نفدت المؤن، اضطر الجنود إلى تقليل استهلاكهم أو البحث عن الطعام في محيطهم، وقد تصبح المجاعة والمرض خطرين حتى قبل وقوع المعركة.

كذلك كان الماء حاسماً، ولا سيما في المناطق الحارة أو الجافة. فالمسير تحت الشمس، وحمل المعدات، والاعتماد على الحيوانات، كلها تزيد الحاجة إلى مصادر مياه يمكن الوصول إليها. ولهذا كان اختيار الطريق ومواقع التوقف قراراتٍ عسكريين، لا مجرد مسألة راحة.

الخيام والنوم والراحة

لم يكن للجيش المقدوني مبنى ثابت يقيم فيه خلال الحملة. فقد كان الجنود ينصبون المعسكرات في مواقع تتناسب مع حركة الجيش والأمن وتوافر الماء والمؤن. وكانت ترتيبات الإقامة تختلف بحسب الرتبة والموارد والوضع الميداني؛ فلا يصح تصور أن كل جندي امتلك خيمة خاصة أو أن المعسكر كان منظماً بالطريقة نفسها في جميع الحملات.

كانت الليالي في المعسكر جزءاً من حياة الحرب إصلاح المعدات، وتجهيز السلاح، ورعاية الخيول، وإعداد الطعام، وتبادل الأخبار، وانتظار أوامر اليوم التالي. وقد يُطلب من بعض الجنود القيام بالحراسة بينما يستريح آخرون، لأن المعسكر نفسه قد يكون هدفاً لهجوم مفاجئ.

وكان النوم يتأثر بالطقس والضجيج والخوف من هجوم ليلي، وبالحاجة إلى الاستعداد السريع للحركة. وفي بعض الحملات، اضطر الجنود إلى قطع مسافات طويلة قبل المعركة أو بعدها، فكانت الراحة المحدودة تزيد الإرهاق وتؤثر في القدرة على القتال. ولا ينبغي تخيل المعسكر بوصفه مجتمعاً متجانساً. فقد ضم ضباطاً وقادة ومشاة وفرساناً وخدماء وأشخاصاً يعملون في نقل المؤن وصيانة المعدات، كما ارتبطت به أحياناً جماعات من التجار والحرفيين وغيرهم ممن يقدمون خدمات للجيش. وكان حجم هذه الجماعات وتركيبها يتغيران بحسب الحملة.

الأجور والغنائم وعلاقة الجندي بالملك

احتاج الجيش المحترف أو الذي يخدم لفترات طويلة إلى تمويل منتظم نسبيًا. وكان دفع الأجور وتوفير المؤن والمكافآت من الوسائل التي تساعد القائد على الاحتفاظ بولاء رجاله. وقد اختلفت ترتيبات الدفع بحسب الوحدة والمرحلة والموارد المتاحة، فلا يمكن تعميم مقدار واحد من الأجر على جميع الجنود المقدونيين.

وكانت الغنائم مصدرًا آخر للثروة، لكنها لم تكن مضمونة. فقد يحصل الجيش بعد انتصار على أموال أو أسلحة أو ممتلكات، وقد تنظم القيادة توزيع ما يُستولى عليه وفق قواعد وظروف تختلف من حملة إلى أخرى. كما أن الغنائم قد تخلق خلافات حول من يستحقها، ومن يحصل على الحصة الأكبر، وما إذا كانت ستوزع على الجنود أو تُخصص للملك والخزانة.

أصبح نجاح فيليب في توفير الموارد وتوسيع المملكة عاملاً مهماً في بناء جيش يستطيع الاستمرار في الحملات. لكن علاقة الجنود بالقائد لم تقم على المال وحده؛ فقد لعبت السمعة العسكرية والثقة بالقيادة والروابط بين المقاتلين والاعتزاز بالمملكة دوراً أيضاً.

وفي عهد الإسكندر، اكتسبت هذه العلاقة بعداً إضافياً، لأن الجنود لم يعودوا يقاتلون فقط قرب موطنهم، بل وجدوا أنفسهم في حملات بعيدة عن مقدونيا، أمام لغات ومناخات وعادات وخصوم لم يعرفوهم من قبل. وكلما طال البعد عن الوطن، أصبحت مسألة الإمداد والراحة والمكافآت والقدرة على العودة أكثر أهمية.

الجرح والمرض والإرهاق

كان القتال يترك آثارًا لا تنتهي بانتهاء المعركة. فقد يتعرض الجنود للجروح والكسور والالتهابات، كما كانوا عرضة للأمراض التي تنتشر في المعسكرات المكتظة، والمشكلات الناتجة عن المياه غير المأمونة أو نقص الغذاء أو الإجهاد. عرف العالم اليوناني معالجات طبية متعددة، وكان بعض الأطباء يرافقون الجيوش أو يعملون في محيطها، لكن الإمكانيات العلاجية ظلت محدودة مقارنة بالطب الحديث. ولم يكن كل جرح قابلاً للشفاء، كما أن الالتهاب أو فقدان الدم قد يحول إصابة تبدو بسيطة إلى خطر قاتل.

وتزداد صعوبة العلاج في الحملات البعيدة، لأن نقل المصابين يحتاج إلى وسائل وأشخاص وموئل، ولأن الجيش لا يستطيع البقاء في مكان واحد إلى أجل غير محدد. وكان على القادة الموازنة بين مواصلة التقدم، وحماية المصابين، وعدم إضعاف القوة المتاحة للقتال.

أما الجنود الذين ينجون من المعارك، فقد يعودون بإصابات دائمة أو يفقدون رفاقهم وأقاربهم. ولا تعطينا المصادر صورة كاملة عن حياتهم بعد الخدمة أو عن جميع أشكال التعويض التي حصلوا عليها، لكنها تذكرنا بأن الجيش لم يكن مجرد أداة في يد الملك؛ بل كان مجموعة من البشر يتحملون مخاطر جسدية ونفسية طويلة الأمد.

تكشف الحياة اليومية للجيش المقدوني أن الانتصارات لم تُصنع بالساريسا وحدها. فقد احتاجت إلى الطعام والماء والمال والتدريب والخيول والمهندسين ووسائل النقل، وإلى قدرة القيادة على إبقاء الجنود مستعدين رغم طول المسير وبعدهم عن بيوتهم. وهذه العناصر هي التي ستظهر أهميتها بوضوح عندما يبدأ الإسكندر حملته في آسيا.

عبور البحر الحملة التي أراد بها الإسكندر تغيير ميزان القوى

بعد تثبيت سلطته في مقدونيا وإخضاع تمرد طيبة، أصبح الإسكندر قادراً على استكمال المشروع الذي أعده والده. وفي عام ٣٣٤ قبل الميلاد، عبر إلى آسيا الصغرى على رأس جيش مقدوني تدعمه قوات من مدن يونانية حليفة أو خاضعة لرابطة كورنثوس. قدمت الحملة رسمياً بوصفها حرباً مشتركة ضد الإمبراطورية الفارسية، التي سبق أن غزت أجزاء من اليونان. لكن دوافعها لم تقتصر على الانتقام التاريخي؛ فقد كانت هناك مصالح تتعلق بالسيطرة على المدن اليونانية في آسيا الصغرى، وبالثروة والطرق التجارية، وبمكانة الملك المقدوني نفسه.

كانت الإمبراطورية الفارسية في ذلك الوقت من أوسع الإمبراطوريات في العالم القديم، تمتد من مناطق شرقي البحر المتوسط إلى أراضٍ بعيدة في آسيا. وقد حكمها الملك داريوس الثالث، الذي واجه مهمة صعبة تتمثل في الدفاع عن رقعة واسعة تتفاوت تضاريسها وسكانها ومصالح حكامها المحليين. ولا ينبغي تصوير الإمبراطورية الفارسية على أنها قوة متداعية تنتظر الهزيمة. فقد امتلكت موارد مالية وبشرية هائلة، وشبكات طرق وإدارة، وجيوشاً تضم عناصر من مناطق متعددة. لكن اتساع الإمبراطورية كان يعني أيضاً أن مواجهة جيش معادٍ في منطقة واحدة تتطلب تنسيقاً بين قادة ومسؤولين بعيدين عن مركز الحكم. أما الإسكندر، فقد دخل آسيا بجيش أصغر من مجموع الموارد التي يستطيع الملك الفارسي تعبئتها، لكنه امتلك قوة ميدانية منظمة، وقادة ذوي خبرة، وقدرة على التحرك بسرعة نسبياً. وكانت خطته تعتمد على تحقيق انتصارات ميدانية تفتح الطريق أمام المدن والمناطق، بدل محاولة احتلال الإمبراطورية كلها دفعة واحدة.

غرانكوس أول اختبار كبير في آسيا الصغرى

في عام ٣٣٤ قبل الميلاد، واجه جيش الإسكندر قوات فارسية عند نهر غرانكوس في آسيا الصغرى. وكانت المواجهة مهمة لأنها شكلت أول انتصار كبير للحملة في الأراضي الآسيوية، وفتحت المجال أمام التقدم نحو المدن الساحلية.

كان لدى القادة الفرس أسباب للاعتقاد بأنهم قادرون على إيقاف المقدونيين، لكن الخلافات في تقدير طريقة المواجهة أثرت في قراراتهم. وتختلف تفاصيل النقاشات التي سبقت المعركة في الروايات القديمة، ولذلك ينبغي الحذر من التعامل مع كل خطاب منسوب إلى قائد باعتباره كلمات قيلت حرفياً.

خاض المقدونيون المعركة قرب النهر، حيث جعلت طبيعة الأرض والعبور المواجهة أكثر تعقيداً. وتعرض الإسكندر نفسه للخطر أثناء القتال، وتذكر الروايات القديمة أنه كاد يُقتل قبل أن يتدخل أحد رفاقه وينقذه. وقد تختلف المصادر في بعض تفاصيل هذه الحادثة، لكنها تعكس صورة الملك الذي شارك في القتال الأمامي ولم يكتفِ بإدارة الجيش من مكان بعيد.

انتهت المعركة بانتصار المقدونيين، وأضعفت قدرة القادة الفرس في المنطقة على تنظيم مقاومة موحدة. وبعدها تقدمت قوات الإسكندر نحو عدد من المدن، بعضها استسلم، وبعضها قاوم، كما تغيرت أوضاع المدن بحسب مصالحها وعلاقاتها السابقة مع الفرس.

كان لهذه الانتصارات أثر سياسي مهم. فكل مدينة تنضم إلى الإسكندر أو تستسلم له قد تمنحه قاعدة جديدة أو موارد أو طريقاً آمناً نسبياً، بينما يمكن أن يؤدي استمرار المقاومة إلى تأخير الحملة واستهلاك الوقت والمؤن.

لكن السيطرة العسكرية لم تكن أن جميع السكان رحبوا بالمقدونيين، ولا أن جميع المدن تعاملت معهم بالطريقة نفسها. فقد رأت بعض القوى المحلية في وصول الإسكندر فرصة للتخلص من الحكم الفارسي، بينما كان آخرون يخشون انتقالهم من سلطة إمبراطورية إلى سلطة ملك جديد.

المدن اليونانية في آسيا الصغرى التحرير أم تبديل الحاكم؟

احتلت المدن اليونانية الواقعة على ساحل آسيا الصغرى مكانة مهمة في خطاب الإسكندر. فقد قدم حملته باعتبارها فرصة لتحرير المدن من السيطرة الفارسية، مستندًا إلى الروابط الثقافية واللغوية والدينية التي جمعتها بالعالم اليوناني.

لكن كلمة التحرير تحتاج إلى قراءة دقيقة. فبعض المدن كانت تحكمها أنظمة سياسية موالية للفرس، ومنها أنظمة أوليغارشية أو حكومات تعتمد على دعم الحاكم الفارسي. وفي حالات أخرى، كانت الأوضاع السياسية أكثر تعقيدًا، ولم يكن جميع السكان يتفقون على النظام الذي يريدونه.

عندما سيطر الإسكندر على مدينة، كان يستطيع تغيير السلطة المحلية أو دعم نظام سياسي جديد أو فرض ترتيبات تخدم الحملة. وقد أعلن في بعض المدن دعم الحكم الديمقراطي، لكنه ظل الملك الذي يحدد الإطار العسكري والسياسي الأوسع، ولم يكن ذلك يعني منح كل مدينة حرية كاملة في اختيار سياستها الخارجية.

كما أن العلاقة بين المقدونيين والمدن لم تكن متطابقة في كل مكان. فالموقع الاستراتيجي، وحجم المقاومة، وموارد المدينة، ومدى الحاجة إلى تأمين الطريق، كلها عوامل أثرت في طريقة التعامل معها.

ومن المهم هنا التمييز بين الروايات التي كتبتها مصادر يونانية عن الحملة، وبين ما يمكن معرفته من النقوش والعملات والآثار المحلية. فالمؤرخون القدماء اهتموا بأفعال الملك وقادته ومعاركه، بينما تساعد الأدلة المادية على فهم استمرار الحياة الاقتصادية والدينية والإدارية في المدن التي تغير حكمها.

لم تتوقف المدن عن كونها مجتمعات لها تاريخها المحلي بمجرد دخول الجيش المقدوني. فقد بقيت المعابد والأسواق والأسر والمهن وشبكات التجارة جزءاً من الحياة اليومية، حتى عندما تبدلت السلطة السياسية. وسيصبح هذا التفاعل بين الحكم المقدوني والتقاليد المحلية من أبرز سمات المرحلة التي تلت الفتوحات.

من غرانكوس إلى إيسوس لماذا لم يستطع الفرس إيقاف التقدم؟

بعد الانتصار عند غرانكوس، اتجه الإسكندر إلى توسيع سيطرته على آسيا الصغرى، ثم تقدم نحو الجنوب الشرقي. وكان عليه أن يضمن أمن المدن الساحلية وطرق الإمداد، وأن يمنع القوات الفارسية من قطع اتصاله بمقدونيا وبالموانئ التي يعتمد عليها.

في هذه المرحلة، لم تكن كل خطوة معركة كبرى؛ فقد تطلبت الحملة إخضاع مواقع محصنة، وتأمين الممرات، وعقد اتفاقات، وتنظيم الحاميات، وإدارة المدن التي انتقلت إلى السيطرة المقدونية. وكانت هذه الأعمال ضرورية للحفاظ على المكاسب العسكرية، لأن ترك المدن خلف الجيش من دون ترتيب سياسي أو عسكري قد يسمح بعودة المقاومة.

في عام ٣٣٣ قبل الميلاد، التقى الجيشان المقدوني والفارسي في معركة إيسوس، قرب الساحل الجنوبي الشرقي لآسيا الصغرى. قاد داريوس الثالث

الجيش الفارسي بنفسه، وكانت هذه المواجهة مختلفة عن غرانكوس؛ إذ حضر الملك الفارسي إلى ساحة القتال، وأصبحت النتيجة مرتبطة بمواجهة مباشرة بين قوتين كبيرتين. استفاد الإسكندر من ظروف الأرض وتوزيع القوات، وشن هجومًا أدى إلى اضطراب جزء من الجيش الفارسي. وتصف المصادر القديمة فرار داريوس من ساحة المعركة، وهو ما كان له أثر معنوي وسياسي كبير، لأن الملك كان رمزًا لسلطة الإمبراطورية.

لم تكن الهزيمة تعني أن الإمبراطورية الفارسية انتهت؛ فقد بقيت لديها أراضٍ وموارد وجيوش أخرى. لكنها أظهرت أن الملك يمكن أن يُجبر على الانسحاب أمام قوة مقدونية، وأن التفوق العددي والموارد الواسعة لا يكفيان إذا تعثرت القيادة في لحظة حاسمة. كما وقعت عائلة داريوس، ومن بينهم زوجته وأمه وأطفاله، في أيدي المقدونيين بعد المعركة. وتذكر الروايات القديمة أن الإسكندر عاملهم معاملة ملكية ولم يسمح بإهانتهم، وهي روايات أسهمت في رسم صورة له بوصفه قائدًا قادرًا على الجمع بين الحزم والكرم. لكن تفاصيل سلوكه في مختلف المواقف تحتاج إلى مقارنة المصادر، لأن صورة الملك المثالي كانت جزءًا من الطريقة التي كتب بها بعض المؤرخين عن الفاتحين.

بعد إيسوس، لم يتجه الإسكندر مباشرة إلى قلب الإمبراطورية الفارسية. فقد اختار أن يتحرك نحو الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وأن يسيطر على الموانئ التي يمكن أن تستخدمها القوات البحرية المعادية. وكان ذلك قرارًا استراتيجيًا؛ إذ إن ترك الموانئ الرئيسية تحت السيطرة الفارسية قد يهدد خطوط الإمداد ويتيح للخصم نقل القوات أو دعم المدن المقاومة. ومن هنا بدأت مرحلة جديدة من الحملة، ستقود الإسكندر إلى صور ومصر، قبل أن يعود إلى مواجهة داريوس الثالث في معركة ستحدد مصير الإمبراطورية الفارسية.

صور ومصر حين دخل الإسكندر إلى عالم أقدم من مملكته

صور المدينة التي وقفت في طريق الجيش

بعد انتصاره في معركة إيسوس عام ٣٣٣ قبل الميلاد، لم يتجه الإسكندر مباشرة إلى بابل أو إلى قلب الإمبراطورية الفارسية، بل تحرك جنوباً على امتداد الساحل الشرقي للبحر المتوسط. كان يريد إخضاع الموانئ التي قد يستخدمها الفرس لتهديد حملته، وتأمين الطريق البحري، ومنع الأسطول الفارسي من الاستفادة من المدن الساحلية.

كانت صور من أهم مدن الساحل الفينيقي، وامتلكت تاريخاً طويلاً في الملاحة والتجارة وصناعة السفن. وكانت مركزاً تجارياً غنياً، تربطها علاقات بمناطق بعيدة من البحر المتوسط، كما ارتبط اسمها بالمستوطنات الفينيقية التي أسهمت في انتشار شبكات التجارة والكتابة والثقافة عبر البحر.

لكن صور لم تكن مدينة يسهل اقتحامها. فقد كان مركزها الرئيسي قائماً على جزيرة قريبة من الساحل، تحيط بها المياه، وتوفر لها حماية طبيعية. وكانت أسوارها وموقعها البحري يجعلان الوصول إليها بالقوات البرية وحدها أمراً بالغ الصعوبة. طلب الإسكندر من المدينة السماح له بدخولها لتقديم قربان في معبد ملقرت، الإله الذي ارتبط بعبادته اسم صور، والذي قارنه اليونانيون أحياناً بهيراكليس. لم يكن الطلب دينياً فقط؛ فدخول الملك إلى المدينة كان سيؤكد خضوعها السياسي له، بينما كان رفضه يعني استمرار استقلالها عن سلطته. رفض الصوريون السماح له بدخول مركز المدينة، واقترحوا أن يقدم القربان في موضع آخر خارجها. لم يقبل الإسكندر هذا الحل، وبدأ حصار صور في مطلع عام ٣٣٢ قبل الميلاد.

كيف بُني طريق إلى جزيرة؟

كان التحدي الأول أن القوات البرية لا تستطيع الوصول إلى الأسوار مباشرة. لذلك أمر الإسكندر ببناء حاجز ترابي وحجري يمتد من الساحل إلى الجزيرة، وهو عمل هندسي ضخم تطلب كميات كبيرة من الصخور والأخشاب والمواد الأخرى، إضافة إلى أعداد من العمال والجنود.

لم يكن إنشاء هذا الحاجز مجرد ردم للمياه الضحلة؛ فقد تعرض العاملون لهجمات من المدافعين عن المدينة، كما واجهوا صعوبات تتعلق بعمق المياه والتيارات والمواد التي يمكن تثبيتها في قاع البحر. وكلما اقترب البناء من الأسوار، أصبح أكثر عرضة للقذائف والهجمات البحرية.

قاوم الصوريون المشروع بوسائل متعددة، واستفادوا من سفنهم ومن معرفتهم بالبحر، وحاولوا إعاقة تقدم البناء. وتذكر الروايات القديمة أن المدافعين استخدموا سفناً وأدوات لإحراق منشآت الحصار، مما اضطر المقدونيين إلى تعديل أساليبهم.

عند هذه المرحلة، لم يعد الجيش المقدوني يعتمد على قواته البرية وحدها. فقد حصل الإسكندر على دعم بحري من مدن وقوى كانت قد انضمت إليه، وأصبح قادراً على استخدام السفن لمواجهة الأسطول الصوري، وحماية أعمال الحصار، وتهديد دفاعات المدينة من البحر.

استمر الحصار نحو سبعة أشهر، وانتهى في صيف عام ٣٣٢ قبل الميلاد بسقوط صور. وتمكن المقدونيون من اختراق الدفاعات بعد قتال شديد، وتعرض سكان المدينة لخسائر كبيرة؛ إذ قُتل كثيرون، وأُسر آخرون وبيع عدد منهم في العبودية وفق الروايات القديمة.

لم يكن سقوط صور انتصارًا عسكريًا فحسب. فقد أزال عقبة رئيسية أمام تقدم الإسكندر جنوبًا، وأضعف قدرة الفرس على استخدام بعض موانئ الساحل لمواجهة الحملة. لكنه ترك أيضًا أثرًا قاسيًا على المدينة وسكانها، وأظهر أن مقاومة الملك المقدوني قد تنتهي بعقوبة مدمرة عندما يقرر جعل السيطرة على موقع استراتيجي شرطًا لمواصلة حملته.

وتكشف قصة صور عن جانب أساسي من الحرب في العالم القديم فقد كانت المدن الساحلية تجمع بين الثروة والاستقلال والموقع العسكري، ولذلك لم يكن إخضاعها مجرد الاستيلاء على أسوارها، بل السيطرة على شبكات التجارة والملاحة التي جعلتها مهمة.

غزة بوابة الطريق إلى مصر

بعد صور، واصل الإسكندر تقدمه جنوبًا، ووصل إلى غزة، وهي مدينة ذات موقع استراتيجي على الطريق الساحلي المؤدي إلى مصر. وكانت المدينة محصنة، كما أن موقعها جعلها نقطة مهمة للتحكم في حركة الجيوش والتجارة بين بلاد الشام ووادي النيل.

واجه المقدونيون مقاومة قوية عند غزة، واضطروا إلى تنفيذ حصار استمر نحو شهرين، بحسب الروايات القديمة. وقد استخدموا آلات الحصار وأعمال الردم للاقترب من الأسوار، وتعرض الإسكندر نفسه للإصابة خلال القتال وفق المصادر التي تروي الحملة.

سقطت المدينة في أواخر عام ٣٣٢ قبل الميلاد تقريبًا، وتعرض سكانها ومدافعوها لعنف شديد. وتختلف الروايات القديمة في تفاصيل العقوبات والأعداد، لذلك ينبغي عدم التعامل مع كل ما ورد فيها بوصفه وصفًا دقيقًا

يمكن التحقق من جميع جزئياته. كان الطريق إلى مصر قد أصبح مفتوحًا بعد سقوط غزة، لكن أهمية هذا التقدم لم تقتصر على إزالة عقبة عسكرية. فمصر كانت من أغنى مناطق الإمبراطورية الفارسية، بفضل الزراعة القائمة على نهر النيل، وموقعها البحري، ومراكزها الإدارية والدينية العريقة.

وكانت السيطرة عليها ستمنح الإسكندر موارد كبيرة، وتحرمه في الوقت نفسه من مقاومة محتملة تأتي من الغرب والجنوب. لذلك كان دخول مصر خطوة استراتيجية، لا مجرد انتقال من ساحة قتال إلى أخرى.

مصر قبل الإسكندر حضارة لم تبدأ بوصول اليونانيين

عندما وصل الإسكندر إلى مصر عام ٣٣٢ قبل الميلاد، كانت البلاد تحمل تاريخًا يمتد آلاف السنين. فقد نشأت فيها ممالك ودول، وتطورت نظم الكتابة والإدارة والعمارة والطب والطقوس الدينية، وشُيّدت المعابد والمقابر الملكية قبل أن يولد الإسكندر بقرون طويلة.

لم تكن مصر في ذلك الوقت مستقلة عن الإمبراطوريات الخارجية. فقد خضعت للحكم الفارسي في فترات مختلفة، واستعادت استقلالها أحيانًا، ثم عادت إلى السيطرة الفارسية في القرن الرابع قبل الميلاد. وعندما وصل الإسكندر، كان الحاكم الفارسي في مصر هو المرزبان مازاكيس.

لم يواجه الإسكندر مقاومة عسكرية كبيرة في البلاد، وتذكر المصادر أن مازاكيس سلّم مصر دون معركة كبرى. وربما ساهم في ذلك أن الحكم الفارسي لم يكن يحظى بقبول متساوٍ لدى جميع القوى المحلية، لكن لا يمكن افتراض أن المصريين جميعًا استقبلوا الإسكندر بالطريقة نفسها أو أنهم اتخذوا موقفًا سياسيًا واحدًا.

كان لدى المصريين تقاليدهم الخاصة في الحكم والدين، كما كان للكهنة والمعابد مكانة اقتصادية واجتماعية مهمة. ولذلك احتاج الملك الجديد إلى تقديم نفسه بطريقة مقبولة داخل هذا العالم، بدل الاكتفاء بإعلان انتصاره العسكري.

لم تكن مصر مجرد أرض غنية يستطيع الجيش الاستيلاء عليها، بل مجتمعًا يمتلك مؤسسات قديمة وخبرة إدارية ودينية لا يمكن تجاهلها. ومن هنا بدأ الإسكندر يتعامل مع البلاد من خلال رموزها وتقاليدها، في محاولة لتثبيت سلطته.

الإسكندر والآلهة المصرية شرعية الملك الجديد

في مصر القديمة، لم يكن الملك مجرد قائد عسكري؛ فقد ارتبطت شرعيته بالنظام الديني وبقدرته على الحفاظ على ما عُرف باسم ماعت، أي النظام والحق والتوازن الذي يُفترض أن يحكم الكون والمجتمع.

كان الحاكم يُتوقع منه أن يحافظ على المعابد، ويحترم الشعائر، ويقدم القرابين للآلهة، ويحمي البلاد من الفوضى. ولذلك كان على الملك الأجنبي الذي يريد حكم مصر أن يتعامل مع هذه التقاليد، حتى لو كانت خلفيته الدينية والثقافية مختلفة.

تظهر الأدلة التاريخية أن الإسكندر اتخذ مواقف أتاحت تقديمه ضمن الإطار الملكي المصري، وأنه ارتبط في التقاليد اللاحقة بفكرة الملك الذي يحترم الآلهة المصرية. لكن تفاصيل مراسم تتويجه الرسمية، ومدى تطبيق جميع الطقوس الملكية عليه، ليست واضحة بالدرجة نفسها في كل المصادر.

ومن المهم التمييز بين ما تثبته الوثائق المصرية وما تروييه المصادر اليونانية اللاحقة. فالمؤرخون اليونانيون اهتموا بمسار الحملة وبصورة الإسكندر، بينما تقدم النقوش والعملات والآثار المصرية أدلة مختلفة على كيفية تمثيل السلطة الملكية في البلاد.

لم يكن احترام الطقوس المصرية يعني أن الإسكندر تخلى عن هويته المقدونية أو تبنى جميع المعتقدات المصرية بصورة شخصية. بل كان جزءاً من سياسة حكم تتطلب التعامل مع المؤسسات المحلية، والاستفادة من الرموز التي يفهمها السكان والكهنة، وتقديم الملك الجديد باعتباره قادراً على الحفاظ على النظام. وهذه ليست ظاهرة خاصة بالإسكندر؛ فقد اضطر حكام أجانب آخرون في تاريخ مصر إلى التعامل مع التقاليد الملكية والدينية نفسها، لأن شرعية الحكم لم تكن تُبنى بالقوة العسكرية وحدها.

واحة سيوة رحلة إلى معبد آمون

من أبرز الأحداث المرتبطة بإقامة الإسكندر في مصر رحلته إلى واحة سيوة في الصحراء الغربية، حيث كان يقع معبد مخصص لعبادة آمون، الذي ربطه اليونانيون بالهم زيوس في بعض التقاليد. كانت الرحلة شاقة بسبب المسافة والبيئة الصحراوية، ولذلك اكتسبت أهمية خاصة في الروايات القديمة. وقد ارتبطت الزيارة بسؤال الإسكندر عن مكانته ومصيره، وبالرغبة في الحصول على تأكيد ديني لشرعيته. تختلف الروايات في تفاصيل ما حدث داخل المعبد. فبعضها يصور الزيارة بوصفها تأكيداً على نسب إلهي أو مكانة استثنائية للإسكندر، بينما تختلف المصادر في صياغة الإجابة التي تلقاها وفي الطريقة التي فُهمت بها.

ولا يمكن الجزم بأن جميع التفاصيل التي ظهرت في الروايات اللاحقة قد حدثت حرفيًا. فقد كانت صورة الإسكندر تتطور بعد وفاته، وظهرت تقاليد أدبية ودينية سعت إلى تفسير نجاحاته الاستثنائية وربطها بعلامات سماوية أو بنسب يتجاوز البشر.

لكن الزيارة، سواء أكانت تفاصيلها كما نقلتها المصادر أم أعيد تشكيل بعض جوانبها لاحقًا، تكشف عن أهمية الدين في السياسة القديمة. لم يكن اللجوء إلى معبد مشهور مجرد شأن شخصي؛ إذ أمكن تفسيره بوصفه خطوة تمنح الملك الجديد مكانة رمزية في عالم يحظى فيه الوحي والنبوة والمكان المقدس بوزن كبير.

كما تكشف الرحلة عن تفاعل بين تقاليد مختلفة فآمون كان إلهًا مصريًا ذا تاريخ طويل، بينما قرأ اليونانيون مكانته من خلال مقارنتها بزيوس. لم يكن ذلك تطابقًا كاملاً بين الإلهين، بل شكلاً من أشكال التفسير المتبادل الذي ظهر كثيرًا عندما تواصلت الثقافات في العالم القديم.

تأسيس الإسكندرية مدينة جديدة على أرض مصرية

في عام ٣٣١ قبل الميلاد، أسس الإسكندر مدينة الإسكندرية على ساحل البحر المتوسط، غرب فرع النيل المعروف بالكانوبي، قرب بحيرة مريوط. وكان الموقع مناسبًا لربط البحر المتوسط بمصر، ولإقامة ميناء يمكن أن يخدم التجارة والإدارة والاتصال بالمناطق الأخرى. لم يكن اختيار الموقع عشوائيًا. فقد جمع بين قربه من النيل وطرق النقل الداخلية، وإمكانية إنشاء مرفأ بحري، وموقعه على مسارات الملاحة في شرق البحر المتوسط. كما أن تأسيس مدينة جديدة أتاح للإسكندر إنشاء مركز يرتبط بالحكم المقدوني من دون أن يحل محل جميع المراكز المصرية القديمة.

تروي المصادر أن الإسكندر شارك في تحديد تخطيط المدينة أو في وضع صورها الأول، لكن التفاصيل الدقيقة لعملية التخطيط تتفاوت في الروايات. وقد توسعت الإسكندرية وازدهرت بصورة كبيرة بعد وفاته، خصوصاً في عهد البطالمة الذين جعلوها عاصمة لمملكتهم.

لم تكن المدينة في لحظة تأسيسها المركز العلمي والثقافي الذي ستشتهر به لاحقاً. فالمكتبة الكبرى ومؤسسات البحث المرتبطة بالعصر البطلمي تنتمي إلى مرحلة لاحقة، ولذلك لا يصح نسب جميع إنجازات الإسكندرية العلمية إلى الإسكندر نفسه.

ومع ذلك، كان تأسيسها خطوة ذات أثر طويل. فقد أصبحت المدينة في القرون التالية مركزاً للتجارة والإدارة والثقافة، والتقى فيها المصريون واليونانيون وجماعات أخرى من حوض البحر المتوسط. ونتج عن هذا اللقاء تفاعل معقد بين اللغات والعادات والمعتقدات، لا مجرد انتقال أحادي للثقافة اليونانية إلى مصر.

أما مصر خارج الإسكندرية، فاستمرت فيها الحياة الزراعية والدينية والإدارية وفق تقاليد أقدم من المدينة الجديدة. بقي النيل أساس الاقتصاد، وظلت المعابد ومراكز العبادة تؤدي أدواراً مهمة، واستمرت اللغة المصرية في الاستخدام إلى جانب اللغة اليونانية التي اكتسبت مكانة متزايدة في الإدارة والحياة العامة.

وهكذا بدأ في مصر شكل جديد من الحكم والتفاعل الثقافي، لكنه لم يمحُ الحضارة المصرية أو يستبدلها دفعة واحدة. فقد دخلت البلاد مرحلة تتعايش فيها تقاليد قديمة مع سلطة جديدة، وسيظهر أثر هذا التعايش بصورة أوضح في العصر البطلمي.

من مصر إلى قلب الإمبراطورية الفارسية

بعد تثبيت وجوده في مصر، لم يبق الإسكندر فيها طويلاً. فقد كان هدفه الرئيسي لا يزال هزيمة داريوس الثالث وإنهاء قدرة الإمبراطورية الفارسية على مواصلة الحرب.

في عام ٣٣١ قبل الميلاد، غادر مصر متجهاً إلى بلاد الرافدين، عبر مناطق الشام وشمال بلاد ما بين النهرين، مستعداً للمواجهة الكبرى. وكان داريوس قد أعاد تنظيم قواته، واختار منطقة واسعة قرب غوغملا، في شمال العراق الحالي تقريباً، لتكون موقعاً للمعركة.

كانت غوغملا أرضاً أكثر انفتاحاً من المواقع التي شهدت المواجهات السابقة، وهو ما أتاح للفرس الاستفادة من بعض عناصر قواتهم، ومنها الفرسان والعربات الحربية. وتذكر المصادر أن داريوس اختار الموقع بعناية لتسهيل حركة هذه القوات، لكن تفاصيل التحضيرات لا يمكن التحقق منها كلها بصورة مستقلة. أما الإسكندر، فقد واجه تحدياً مختلفاً كيف يحافظ على تماسك جيشه أمام قوة فارسية كبيرة، وكيف يستغل نقاط ضعف خصمه من دون أن يسمح لقواته بالتعرض للتطويق؟

لم تكن المعركة محسومة قبل أن تبدأ، ولم يكن انتصار المقدونيين نتيجة تفوق بسيط في العدد. فقد اعتمدت النتيجة على القيادة وتوزيع القوات واستغلال الثغرات والتغيرات التي طرأت خلال القتال. ستكون غوغملا واحدة من أهم المعارك في تاريخ الإسكندر، لأنها ستفتح الطريق أمامه إلى بابل ثم إلى المراكز الكبرى في الإمبراطورية الفارسية. لكن سقوط هذه المراكز لن يعني أن بناء الإمبراطورية الجديدة سيكون سهلاً؛ فاحتلال المدن شيء، وحكم شعوب واسعة تختلف لغاتها وتقاليدها ومصالحها شيء آخر.

غوغميلا سقوط الإمبراطورية الفارسية

المعركة التي غيرت ميزان الشرق

في عام ٣٣١ ق.م، تحرّك الإسكندر المقدوني بجيشه نحو قلب الإمبراطورية الفارسية، حيث كان الملك داريوس الثالث يستعد لمواجهة مرة أخرى. لم تكن هذه المواجهة الأولى بين الرجلين؛ فقد سبق أن التقيا في معركة إيسوس، التي انتهت بانتصار الإسكندر وانسحاب داريوس، تاركاً وراءه عائلته ومعسكره. لكن الملك الفارسي لم يكن قد فقد مملكته بعد، وكانت لديه موارد بشرية ومالية واسعة تسمح له بتجميع جيش جديد.

اختار الفرس سهلاً واسعاً قرب غوغميلا في شمال بلاد الرافدين، وهي منطقة تتيح استخدام أعداد كبيرة من الفرسان والعربات الحربية. وتشير الروايات القديمة إلى أن داريوس أمر بتسوية الأرض في مواضع منها لتسهيل حركة العربات ذات الشفرات الحادة المثبتة في عجلاتها. كانت هذه العربات تهدف إلى اختراق صفوف المشاة وإحداث الفوضى في تشكيلاتهم، لكنها لم تكن سلاحاً مضمون الفاعلية؛ إذ كان نجاحها يتوقف على تماسك الصفوف، وطبيعة الأرض، وقدرة الجنود على تجنب مسارها.

لا يمكن الاعتماد على الأعداد الضخمة التي توردها بعض المصادر القديمة عند الحديث عن الجيش الفارسي؛ فقد بالغ الكتاب القدماء أحياناً في تقدير أعداد الجيوش الشرقية، وربما كان الغرض من ذلك إبراز عظمة الانتصار المقدوني. والأهم من الأرقام هو أن داريوس استطاع جمع قوات متعددة الأصول، ضمت فرساناً ومشاة ووحدات من مناطق مختلفة خاضعة لحكمه.

في المقابل، لم يكن جيش الإسكندر مجرد كتلة من المشاة المقدونيين. فقد جمع بين الكتائب المسلحة بالرمح الطويلة، وفرسان مقدونيين مدربين على الهجوم، وقوات خفيفة ورماة، ووحدات حليفة من اليونانيين ومناطق أخرى. وكانت قوة هذا الجيش في التنسيق بين وحداته، وفي قدرة قيادته على استغلال الثغرات بدل الاعتماد على الاندفاع المباشر وحده.

بدأت المعركة بمناورات هدفت إلى دفع الخصم إلى التحرك وتغيير تشكيلاته. وتصف الروايات القديمة كيف حاول الإسكندر التقدم نحو أحد جوانب الجيش الفارسي، بينما عمل داريوس على منع قواته من الالتفاف حوله. وفي أثناء الاشتباك، تشكلت فجوة في صفوف الفرس، فاستغل الإسكندر الموقف واندفع بفرسانه نحو المنطقة التي كان يوجد فيها الملك.

تختلف التفاصيل الدقيقة بين الروايات، ولا نستطيع إعادة بناء كل حركة في المعركة بثقة كاملة. لكن النتيجة الأساسية واضحة تراجعت القوات الفارسية، وغادر داريوس ساحة القتال، وانتهى اليوم بانتصار مقدوني حاسم. لم يكن ذلك يعني أن كل مقاومة فارسية قد انتهت، لكنه حطم قدرة الملك على مواجهة الإسكندر في معركة كبرى أخرى بالظروف نفسها.

كانت غوغميلا نقطة تحول سياسية بقدر ما كانت انتصارًا عسكريًا. فبعد إيسوس، ظل بإمكان داريوس أن يعيد تنظيم جيشه ويستند إلى عاصمته وموارده. أما بعد غوغميلا، فقد أصبحت المراكز الكبرى للإمبراطورية مفتوحة أمام الإسكندر، وأخذت شرعية الملك الفارسي تتآكل، خصوصًا لدى النخب التي بدأت تبحث عن وسيلة لحماية مواقعها ومصالحها في ظل القوة الجديدة.

ومع ذلك، لم تسقط الإمبراطورية في لحظة واحدة. فالإمبراطوريات لا تختفي بمجرد هزيمة جيشها؛ إذ تبقى مدنها وموظفوها وطرقها ومخازنها وأنظمة جبايتها قائمة، حتى لو فقدت السلطة المركزية قدرتها على السيطرة. وكان على الإسكندر، إذا أراد الاحتفاظ بما فتحه، أن يتحول من قائد حملة عسكرية إلى حاكم لأقاليم واسعة ذات تقاليد إدارية راسخة.

بابل مدينة أقدم من الفاتحين

بعد انتصاره، اتجه الإسكندر نحو بابل، إحدى أهم مدن بلاد الرافدين وأقدم مراكز الحضارة في المنطقة. لم تكن بابل مجرد مدينة غنية أو محطة على طريق الجيش؛ فقد كانت مركزاً دينياً وعلمياً وإدارياً، ارتبط اسمها بممالك متعاقبة، واحتفظت بمعابدها وكتّابها وتقاليدها رغم تغير الحكام. عندما اقترب الجيش المقدوني، لم يخض معركة مدمرة للسيطرة على المدينة. وتذكر الروايات أن أبوابها فُتحت للإسكندر، وأنه دخلها في مشهد يختلف تماماً عن مشاهد الحصار التي شهدتها مدن أخرى. وقد ساعده ذلك على تجنب تدمير مركز اقتصادي وإداري كان من الممكن أن يصبح مصدراً للموارد والشرعية.

كان معبد مردوخ، المعروف باسم إيساگیلا، من أبرز المؤسسات الدينية في بابل. ولم تكن المعابد في بلاد الرافدين أماكن للعبادة فحسب؛ فقد ارتبطت بها ممتلكات وعمال ومخازن وأنشطة اقتصادية، وكان للكهنة دور في حفظ الطقوس والمعارف والتقاليد المكتوبة. لذلك كان التعامل مع المعابد جزءاً من سياسة الحكم، لا مسألة دينية منفصلة عن إدارة البلاد.

وتساعد الوثائق المسمارية البابلية على فهم هذه المرحلة من زاوية مختلفة عن روايات المؤرخين اليونانيين. فالسجلات المحلية، بما فيها النصوص الفلكية والإدارية والتأريخية، تتيح تتبع بعض الأحداث وأسماء الحكام

والتغيرات السياسية، وإن كانت لا تقدم رواية كاملة لكل ما جرى. وهي تذكّرنا بأن سكان بابل لم يكونوا مجرد جمهور يشاهد قدوم جيش أجنبي؛ بل كانوا أصحاب مؤسسات وتقاليدها معرفة استمرت قبل الإسكندر وبعده.

كان على الحاكم الجديد أن يوازن بين حاجات جيشه ومصالح المدينة. فالجنود يحتاجون إلى الطعام والرواتب والإمدادات، بينما يحتاج السكان إلى استمرار الزراعة والتجارة والطقوس الدينية والإدارة اليومية. وإذا أراد الفاتح تحويل انتصاره إلى حكم مستقر، فلا بد له من الاستفادة من الموظفين المحليين بدل البدء من الصفر.

وهنا تظهر إحدى السمات المهمة في توسع الإسكندر لم يكن الحكم المقدوني قادرًا على إدارة كل إقليم اعتمادًا على المقدونيين وحدهم. فقد ورث جهازًا إداريًا واسعًا، وكانت الخبرة المحلية ضرورية لفهم الضرائب والمخازن والطرق وشؤون المدن. لذلك استمر استخدام بعض الترتيبات الإدارية الفارسية، مع وضع قادة ومراقبين مقدونيين في مواقع استراتيجية. لم يكن ذلك اندماجًا ثقافيًا كاملاً، ولا دليلاً على أن الإسكندر تخلى عن هويته المقدونية. كان الأمر في هذه المرحلة أقرب إلى محاولة الاستفادة من النظام القائم مع إخضاعه لسلطة جديدة. ومع مرور الوقت، ستتطور هذه السياسة وتثير خلافات بين الإسكندر وبعض قادته وجنوده.

شوش خزائن الإمبراطورية

من بابل انتقل الإسكندر إلى شوش، إحدى العواصم الملكية المهمة في الدولة الأخمينية. كانت الإمبراطورية الفارسية لا تعتمد على عاصمة واحدة بالمعنى الحديث؛ فقد استخدم ملوكها مراكز ملكية متعددة، من بينها شوش

وبرسبوليس وهمدان وبابل، وتفاوتت وظائف هذه المدن بحسب الموسم والاحتياجات السياسية والإدارية.

لم تكن هذه المراكز متشابهة تمامًا. فبعضها ارتبط بالإدارة والحكم، وبعضها احتفظ بمكانة احتفالية أو ملكية خاصة، وكانت شبكة الطرق والمراسلات والموظفين تسمح للسلطة المركزية بإدارة أقاليم بعيدة نسبيًا عن بعضها.

في شوش، حصل الإسكندر على موارد مالية كبيرة، شملت معادن نفيسة وكنوزًا ملكية. وكانت هذه الثروة أكثر من غنيمة شخصية؛ فقد أتاحت تمويل الجيش، ومكافأة الجنود والقادة، وتغطية نفقات الحملات المقبلة. فالحرب القديمة لم تكن تُحسم في ساحة القتال وحدها، بل كانت تحتاج إلى المال والمؤن والخيول والمعدات والقدرة على تعويض الخسائر.

وكان الاستيلاء على خزائن الدولة الفارسية يغيّر ميزان القوة بصورة عميقة. فالجيش المنتصر يستطيع أن يستخدم موارد خصمه السابق لتوسيع حملته، في حين يفقد الطرف المهزوم أحد أهم عناصر قدرته على إعادة بناء قوته. لكن خزائن الملوك لم تكن تعني أن كل سكان الإمبراطورية يعيشون في الثراء. فالثروة المركزة في القصور لا تعكس بالضرورة مستوى معيشة الفلاحين أو العمال أو سكان القرى. كانت الإمبراطورية واسعة، واختلفت أوضاع أقاليمها، كما اختلفت أعباؤها الضريبية ومواردها وطرق إدارتها. ومن شوش، واصل الإسكندر تقدمه نحو برسبوليس، المركز الملكي الذي سيصبح سقوطه واحدًا من أكثر أحداث حملته إثارة للجدل.

برسبوليس عاصمة تتحول إلى رماد

كانت برسبوليس من أبرز المراكز الملكية الأخمينية. وقد بدأ داريوس الأول بناء مجمعها الاحتفالي في أواخر القرن السادس أو أوائل القرن الخامس ق.م، ثم واصل خلفاؤه توسيعه. قامت منشآتها على مصاطب ضخمة، وضمت قصورًا وقاعات استقبال وشلالم احتفالية نُقشت عليها مشاهد تمثل وفودًا من أقاليم الإمبراطورية وهي تقدم الهدايا.

هذه النقوش ليست مجرد زينة معمارية. فهي تقدم صورة عن الطريقة التي أراد بها الملوك الأخمينيون إظهار نظامهم السياسي شعوب متعددة، لكل منها لباسها وهداياها وخصائصها، تجتمع تحت سلطة الملك. ولا ينبغي قراءة المشاهد باعتبارها تسجيلًا محايدًا لكل تفاصيل الحياة؛ فهي صور رسمية صيغت لخدمة رؤية ملكية للعالم، لكنها تظل مصدرًا مهمًا لفهم رموز الحكم الإمبراطوري.

عندما دخل الإسكندر برسبوليس عام ٣٣٠ ق.م، استولى على ما بقي فيها من ثروات ملكية، ثم اندلع حريق دمر أجزاء كبيرة من المجمع. أما كيفية اندلاع الحريق ودوافعه، فقد أصبحت موضع خلاف منذ العصور القديمة. تربط بعض الروايات الحريق برغبة في الانتقام من تدمير الأثينيين على يد الفرس خلال غزو بلاد اليونان في عهد خشايارشا الأول. وتروي رواية أخرى أن الحريق بدأ أثناء وليمة، وأن امرأة يونانية تدعى ثايس شجعت على إحراق القصر، قبل أن يتحول الأمر إلى حريق واسع. لكن هذه التفاصيل وردت في روايات أدبية متأخرة نسبيًا، ولا يمكن التعامل معها كأنها محضر مباشر للحادثة.

كما أن وجود الحريق نفسه لا يحسم وحده تفسيره. فالأدلة الأثرية تثبت تعرض أجزاء من المجمع للتدمير بالنار، لكنها لا تستطيع وحدها أن تخبرنا بكل ما قيل في الوليمة، أو ما إذا كان القرار مخططاً له منذ البداية، أو ما إذا كان الإسكندر قد سمح بتوسع الحريق ثم ندم عليه، كما تذكر بعض الروايات. سواء أكان الحريق انتقاماً متعمداً أم فعلاً اتخذ في ظروف مضطربة، فقد حمل معنى سياسياً بالغ القوة. فبرسبوليس لم تكن مجرد قصر؛ كانت رمزاً لهيبة الملك الأخميني، ومسرحاً لطقوس الحكم ومظاهر السلطة. وتدمير أجزاء منها أرسل رسالة بأن النظام القديم لم يعد قادراً على حماية أهم رموزه. ومع ذلك، لم يؤدّ احتراق القصور إلى اختفاء الثقافة الفارسية أو مؤسساتها. فالمدن والسكان واللغات والتقاليد الإدارية لم تكن محصورة في مجمع ملكي واحد. كما أن الإسكندر نفسه سيحتاج لاحقاً إلى عناصر من النظام الذي هزمه، لأن السيطرة على إمبراطورية واسعة لا تتحقق بمجرد إحراق رمزها السياسي.

داريوس الثالث ملك يفقد مملكته

بعد خسارته غوغميلا، انسحب داريوس الثالث شرقاً، محاولاً جمع ما بقي من سلطته. لم يعد يمتلك القدرة نفسها على حشد جيش كبير يواجه الإسكندر في معركة فاصلة، لكن وجوده ظل مهماً؛ فطالما بقي الملك حياً وقادراً على المطالبة بالعرش، بقي من الممكن أن تتجمع حوله قوى رافضة للحكم المقدوني. كان الإسكندر يطارده، فيما بدأت بعض الشخصيات النافذة في الإمبراطورية تفكر في مستقبلها. ومن بين هؤلاء بيسوس، الذي كان يحكم إقليم باكتريا في الشرق. وفي النهاية، قبض على داريوس بعد أن انقلب عليه رجال من دائرته، وتوفي متأثراً بما تعرض له من اعتداءات عام ٣٣٠ ق.م.

تروي المصادر أن الإسكندر أبدى احترامًا للملك المهزوم، وأنه أراد معاملته بصفته ملكًا لا مجرد أسير. غير أن تفاصيل اللحظات الأخيرة تختلف بين الروايات، كما أن تصوير الإسكندر بوصفه الوريث الشرعي الذي انتقم لداريوس من قاتليه يخدم أيضًا صورة سياسية أراد الإسكندر ترسيخها.

كان موت داريوس نهاية فعلية لحكمه، لكنه لم يكن نهاية فورية لكل مقاومة. فقد احتاج الإسكندر إلى إثبات أنه قادر على وراثة الإمبراطورية، لا على هزيمة جيشها فقط. كما كان عليه أن يواجه رجالًا طموحين اعتقدوا أن سقوط الملك يمنحهم فرصة لتأسيس سلطات مستقلة. وهنا ظهر التحدي الحقيقي كيف يحكم المقدونيون أراضي اعتاد سكانها الخضوع لملك عظيم، وكانت فيها تقاليد راسخة في الإدارة والتراثية والطقوس الملكية؟ هل يحكمها الإسكندر بوصفه قائدًا منتصرًا يفرض إرادته بالقوة، أم يحاول تقديم نفسه بوصفه صاحب سلطة ملكية جديدة تستطيع الاستمرار بعد انتهاء الحملة؟

لم يكن هناك جواب بسيط. فقد جمع الإسكندر بين الاحتفاظ بالقيادة العسكرية المقدونية، والاستفادة من موظفين محليين، وتبني بعض مظاهر الملكية الشرقية. وقد رأى بعض المقدونيين في هذه السياسة ضرورة لحكم الأراضي الجديدة، بينما خشي آخرون أن تتحول إلى ابتعاد عن العادات التي ميّزت جماعتهم العسكرية والسياسية.

من بلاد فارس إلى آسيا الوسطى

لم يتوقف الإسكندر بعد سقوط المراكز الملكية الفارسية. فقد اتجه شرقًا وشمال شرق، نحو أقاليم باكتريا وسوغديانا، وهي مناطق تقع في أجزاء من آسيا الوسطى الحالية. وهناك تغيرت طبيعة الحرب.

في المعارك الكبرى السابقة، كان بإمكان الإسكندر أن يسعى إلى مواجهة الجيش الخصم في ساحة محددة، مستفيدًا من تنسيق قواته. أما في آسيا الوسطى، فقد واجه مقاومة متفرقة في مناطق واسعة، تتخللها جبال ووديان ووحدات ومراكز سكانية متباعدة. ولم يكن إخضاع مدينة أو هزيمة قائد محلي يعني بالضرورة أن الإقليم كله أصبح مستقرًا.

استخدمت القوات المقاومة معرفتها بالأرض، واعتمدت أحيانًا على الحركة السريعة والهجمات المباغتة والانسحاب إلى مناطق يصعب على الجيش المقدوني متابعتها فيها. وكان على الإسكندر أن يوزع قواته على مسافات كبيرة، ويحمي خطوط الإمداد، ويقيم مواقع عسكرية ويعقد اتفاقات مع بعض الزعماء المحليين.

كما كانت مشكلة الشرعية قائمة. فبعض القادة المحليين لم يروا أنفسهم ملزمين بطاعة حاكم جاء من الغرب بعد انهيار السلطة المركزية. وكان كل انتصار يحتاج إلى ما بعده من تأمين الطريق، وضمان ولاء الحامية، وتعيين إدارة قادرة على جمع الموارد، ومنع اندلاع تمرد جديد. أظهر هذا التوسع أن الإمبراطورية لا تُقاس بمساحة الأرض التي يصل إليها الجيش وحدها، بل بقدرته على الاحتفاظ بها. فالجندي يستطيع دخول مدينة، لكن الحاكم يحتاج إلى معرفة من يملك الأرض، ومن يجمع الضرائب، وكيف تُنقل الحبوب، وأي الجماعات المحلية تستطيع تعبئة المقاومة.

وخلال هذه الحملات، ازداد اعتماد الإسكندر على ترتيبات تجمع بين المقدونيين وبعض النخب المحلية. لكنه لم يكن يحقق اندماجًا متساويًا بين الجميع؛ فقد بقيت السلطة العسكرية العليا في يده وفي يد قادته، وظلت المصالح المتعارضة حاضرة تحت سطح التوسع.

بيسوس ونهاية المطالبة بالعرش الأخميني

كان بيسوس أحد أبرز منافسي الإسكندر في الشرق. وبعد موت داريوس، أعلن نفسه ملكًا واتخذ اسم أرتخشستا الرابع، في محاولة لإظهار أنه الوريث القادر على مواصلة الحكم الأخميني. لكن سلطته لم تكن راسخة في كل الأقاليم، كما أن رجالًا آخرين في المنطقة كانت لهم مصالحهم وحساباتهم الخاصة.

واصل الإسكندر مطاردته، وكان القبض عليه مهمًا من الناحية العسكرية والسياسية. فبيسوس لم يكن مجرد قائد متمرد؛ بل كان منافسًا يزعم امتلاك الحق في الملكية الفارسية. وقد أراد الإسكندر أن يظهر بوصفه المنتقم لداريوس والمعاقب لمن خان الملك، لا بوصفه غازيًا أنهى سلالة ثم ترك المجال مفتوحًا لأي قائد يعلن نفسه خليفة لها.

قُبض على بيسوس في نهاية المطاف، وتعرض لعقوبة قاسية. وتختلف الروايات القديمة في بعض تفاصيل اعتقاله ومحاكمته وعقابه، ولذلك ينبغي الحذر من تكرار المشاهد الدرامية التي نقلها المؤرخون من دون تمييز بين ما يمكن إثباته وما قد يكون صيغ لإبراز عدالة الإسكندر أو قسوته.

وبإزالة هذا المنافس، ضعفت المطالبة السياسية بإعادة بناء الملكية الأخمينية تحت قيادة أحد كبار قادتها. لكن مقاومة الإسكندر في آسيا الوسطى لم تنته، لأن كثيرًا من النزاعات لم تكن مرتبطة بشخص داريوس أو بيسوس وحده، بل بحق المجتمعات المحلية في الاحتفاظ باستقلالها ومصالحها.

وهكذا، انتقلت حملة الإسكندر من حرب ضد ملك معروف وجيش مركزي إلى صراع طويل من أجل السيطرة على أقاليم متباعدة، حيث لم يعد الانتصار في

معركة واحدة كافياً لحسم المستقبل. كانت الإمبراطورية الفارسية قد فقدت مركزها الملكي، لكن الأراضي التي حكمتها لم تصبح فجأة عالماً بلا تاريخ أو سلطة؛ لقد دخلت مرحلة جديدة، ستتشكل فيها علاقات معقدة بين القوة المقدونية والتقاليد المحلية، قبل أن تتحول هذه الأراضي لاحقاً إلى جزء من العالم الهلنستي.

من جبال آسيا الوسطى إلى أنهار الهند حدود الفتح حرب لا تنتهي بانتصار واحد

بعد سقوط المراكز الملكية الفارسية، واصل الإسكندر حملاته في الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية السابقة. كان قد انتصر على جيوش كبيرة، واستولى على خزائن ومدن ملكية، لكنه اكتشف أن السيطرة على آسيا الوسطى أصعب مما توحى به خريطة الفتوحات.

امتدت باكتريا وسوغديانا عبر مناطق تتنوع فيها الطبيعة بين السهول والجبال والوديان والواحات. وكانت المسافات الطويلة تجعل نقل المؤن والرسائل والجنود مهمة شاقة، بينما أتاحت التضاريس للقوات المحلية أن تنسحب إلى مواضع يصعب اقتحامها، ثم تعود إلى مهاجمة الحاميات والطرق.

لم تكن المقاومة هناك جيشاً واحداً يمكن تدميره في معركة حاسمة، بل مجموعات وقوى محلية تتبدل تحالفاتها. وقد يقبل أحد الزعماء الخضوع للإسكندر، بينما يرفضه آخر، أو ينقلب حليف سابق حين يشعر بأن سلطته مهددة. لذلك احتاج المقدونيون إلى الحملات المتكررة، وبناء المواقع العسكرية، وتأمين الطرق، وإخضاع المراكز التي يمكن أن تتحول إلى قواعد للمقاومة. كان لهذا النوع من الحرب ثمن مختلف عن ثمن المعارك الكبرى.

ففي المعركة يستطيع القائد أن يركز قواته في مكان واحد، أما في الأقاليم الواسعة فيضطر إلى توزيع الجنود لحماية المدن والمعابر وخطوط الإمداد. وكلما اتسعت الأراضي التي سيطر عليها، ازدادت الحاجة إلى الحاميات والموظفين والموارد، وأصبح الحفاظ على المكتسبات عبئاً مستمراً.

لم تكن هذه مشكلة مقدونية فحسب؛ فقد واجهتها إمبراطوريات كثيرة حين حاولت السيطرة على مناطق بعيدة ومتنوعة. فالقوة العسكرية قد تفرض الخضوع، لكنها لا تضمن وحدها قبول الحكم الجديد أو توقف النزاعات المحلية.

صخرة سوغديانا وروكسانا

من أشهر أحداث هذه المرحلة حصار موضع مرتفع في سوغديانا، تذكره المصادر باسم صخرة سوغديانا. كان الموقع شديد الصعوبة، وقد لجأ إليه خصوم الإسكندر مستفيدين من ارتفاعه وطبيعة الأرض المحيطة به. وتروي المصادر اليونانية أن الإسكندر استعان برجال متمرسين في تسلق المرتفعات، وأنهم تمكنوا من الوصول إلى موضع يسمح بتهديد المدافعين وإجبارهم على الاستسلام. تبدو الرواية في صورتها الأدبية قصة عن الجرأة والمهارة، لكن قيمتها التاريخية تتجاوز البطولة الفردية. فهي تكشف أن السيطرة على آسيا الوسطى لم تعتمد على الكتائب والفرسان وحدهم؛ بل احتاجت أيضاً إلى الاستطلاع، والتسلق، والهندسة، وفهم طبيعة الأرض، واستعداد الجنود لتنفيذ مهام خطيرة بعيداً عن ساحات القتال المفتوحة. وفي سياق هذه الأحداث، تذكر الروايات لقاء الإسكندر بروكسانا، ابنة أحد الزعماء المحليين، ثم زواجه منها نحو عام ٣٢٧ ق.م. ويُقدّم هذا الزواج أحياناً بوصفه مثالاً على التقارب بين المقدونيين والنخب الشرقية، لكنه لا ينبغي أن يُفهم باعتباره دليلاً على

اندماج اجتماعي شامل. فالزواج الملكي كان وسيلة لبناء رابطة سياسية وشخصية، وقد يساهم في تخفيف العداء أو تثبيت تحالف، لكنه لا يلغي المصالح المتعارضة ولا يضمن ولاء جميع الجماعات.

كما أن روايات الإسكندر وروكسانا وصلت إلينا أساسًا عبر كتاب يونانيين ورومان كتبوا بعد الأحداث. ولذلك لا نعرف الكثير عن صوت روكسانا نفسها، أو عن نظرتها إلى الزواج، أو عن تفاصيل حياتها داخل البلاط المقدوني. إن غياب صوتها لا يعني أن دورها كان بلا أهمية، بل يعكس طبيعة المصادر القديمة التي اهتمت بأفعال الملوك والقادة أكثر من اهتمامها بتجارب النساء اللواتي ارتبطت حياتهن بالسياسة.

الإسكندر ومشكلة الحكم

كلما تقدم الإسكندر شرقًا، ازداد اعتماده على الأشخاص الذين يعرفون الأقاليم التي أخضعها. لم يكن في وسع عدد محدود من المقدونيين أن يتولوا جميع وظائف الإدارة في إمبراطورية واسعة، لذلك احتاج الحكم الجديد إلى موظفين محليين، وإلى زعماء يستطيعون التأثير في السكان، وإلى أنظمة قائمة لجمع الموارد وتنظيم شؤون المدن. لكن هذا الاعتماد أثار توترًا داخل الجيش والبلاط. فقد رأى بعض المقدونيين أن المشاركة المحلية ضرورة عملية، بينما خشي آخرون أن تمنح النخب الشرقية نفوذًا أكبر مما ينبغي، أو أن يبتعد الإسكندر عن العادات التي اعتادها رفاقه.

وكان الإسكندر نفسه يتغير مع اتساع سلطته. فقد أصبح يحكم أقاليم كانت جزءًا من إمبراطورية ملكية عريقة، ولم يعد قائدًا يقود جيشه من مدينة إلى أخرى فحسب. احتاج إلى إظهار مكانته أمام الشعوب الخاضعة، وفي الوقت نفسه إلى الحفاظ على ولاء المقدونيين الذين صنعوا انتصاراته.

ومن مظاهر هذا التوتر الخلاف حول بعض طقوس البلاط، ولا سيما طقس السجود أو الانحناء الاحتفالي المعروف في المصادر اليونانية باسم البروسكينيسيس. كان هذا النوع من التحية يحمل دلالات مختلفة في الثقافات القديمة؛ فقد ارتبط في البلاط الفارسي بمكانة الملك ومراتب الحاضرين، بينما كان بعض اليونانيين يعدّون الخضوع الجسدي أمام إنسان حر أمراً لا ينسجم مع تصورهم لعلاقة المواطن أو الرقيق بالحاكم.

ولا يصح اختزال الخلاف في أن اليونانيين رفضوا كل أشكال الاحترام، أو أن الفرس عبدوا ملوكهم بوصفهم آلهة. فالممارسات والرموز كانت تختلف بين المجتمعات، كما أن الكتاب اليونانيين قدّموا بعض العادات الفارسية من خلال مفاهيمهم الخاصة. لكن الحادثة تكشف صعوبة الجمع بين ثقافات سياسية متعددة في بلاط واحد. كان على الإسكندر أن يقرر كيف يبدو ملكاً أمام رعاياه الجدد، من دون أن يفقد شرعيته في نظر جيشه. وكلما اتسعت مملكته، أصبح هذا التوازن أكثر تعقيداً.

المؤامرات والتمرد داخل الجيش

لم تكن التحديات كلها خارجية. فقد عاش الإسكندر سنوات طويلة في الحملات، وتبدلت علاقته ببعض قادته مع اتساع سلطته وتزايد الشكوك في البلاط. وتذكر المصادر مؤامرة في صفوف الشبان المرافقين للملك، عُرفت بمؤامرة الفتيان، نحو عام ٣٢٧ ق.م، ارتبطت باتهامات بالتخطيط لاغتياله. ومن الشخصيات التي ظهرت في هذه القضية هيرمولاوس، وهو أحد الشبان الذين كانوا يرافقون الملك ضمن مجموعة ذات مكانة خاصة. لكن تفاصيل المؤامرة ودوافع المشاركين فيها تظل مرتبطة بروايات قديمة تختلف في

عرضها، وقد تأثرت بالطريقة التي صوّرت بها سلطة الإسكندر وعلاقته بالمقربين منه.

وقبل ذلك، كان الإسكندر قد قتل كليتوس الأسود عام ٣٢٨ ق.م، وهو قائد مقدوني أنقذ حياته في معركة غرانيكوس، بحسب الروايات القديمة. وقع الخلاف خلال وليمة، وتصف المصادر جدالاً حاداً حول فضل المقدونيين والملك، ثم انتهى الأمر بمقتل كليتوس على يد الإسكندر في لحظة غضب.

هذه الحادثة مهمة لأنها تكشف الوجه المأساوي للسلطة حين تجتمع القيادة العسكرية والهيبة الملكية والاندفاع الشخصي في يد واحدة. فالإسكندر الذي أظهر شجاعة في المعارك، وامتلك قدرة كبيرة على اتخاذ القرار، كان قادراً أيضاً على ارتكاب فعل عنيف بحق أحد أقرب قادته إليه.

ولا ينبغي أن نحول الحادثة إلى تشخيص نفسي حديث، أو أن نفترض أن كل ما تروييه المصادر وقع بالتفصيل نفسه. لكن من الواضح أن علاقات الثقة داخل القيادة أصبحت أكثر هشاشة، وأن سنوات الحرب الطويلة غيرت طبيعة العلاقة بين الملك ورفاقه.

كان كثير من القادة قد شاركوا الإسكندر في بدايات حملته، حين كان هدفهم إسقاط الإمبراطورية الفارسية. أما بعد تحقيق ذلك، فقد وجدوا أنفسهم في حملات جديدة تمتد إلى مناطق لم يعرفوها، تحت قيادة ملك تزداد سلطته وتتغير طقوس بلاطه. ولم يكن الجميع متفقين على معنى النصر أو على المدى الذي ينبغي أن يصل إليه التوسع.

عبور الهند عالم جديد أمام الجيش المقدوني

في عام ٣٢٧ ق.م، اتجه الإسكندر نحو شبه القارة الهندية. ولم تكن الهند آنذاك دولة موحدة يحكمها ملك واحد، بل كانت تضم ممالك وقوى محلية متعددة، تختلف في مواردها وعلاقاتها السياسية وقوتها العسكرية.

وكانت المناطق الواقعة وراء نهر السند جزءًا من عالم تجاري وثقافي واسع يرتبط بطرق برية وأنهار ومراكز زراعية. عرف الإغريق بعض الأخبار عن هذه المناطق قبل حملة الإسكندر، لكن معرفتهم بها ظلت محدودة ومتأثرة بما نقله الرحالة والتجار والجنود. لم يكن هدف الإسكندر مجرد بلوغ مكان بعيد على الخريطة. فقد حاول إخضاع الحكام المحليين، وبناء التحالفات مع من يقبلون سلطته، والاستفادة من موارد المناطق التي يصل إليها. وكان بعض الحكام يختار التعاون معه بدل الدخول في حرب قد تهدد مملكتهم، في حين قرر آخرون المقاومة. عبر الجيش مناطق جبلية وطرقًا صعبة، وخاض مواجهات مع جماعات محلية قبل الوصول إلى نهر السند. وفي بعض المناطق، واجه مقاومة عنيفة، ولم تكن كل المدن أو الحصون مستعدة لتسليم نفسها. كما أن اختلاف البيئة والمناخ والموارد جعل الحملة تتطلب استعدادات لم يعتدها الجنود في أوروبا أو غرب آسيا. كان عبور الأنهار تحديًا خاصًا. فالأنهار الكبرى ليست مجرد خطوط على الخريطة، بل حواجز تتغير مع المواسم، وتحتاج إلى معرفة بالمياه والتيارات والضفاف ومواقع العبور. وقد احتاج الجيش إلى تنظيم القوارب ووسائل النقل، وإلى حماية الجنود والخيول والمعدات أثناء الانتقال. وعندما وصل الإسكندر إلى نهر الهيداسبس، المعروف اليوم باسم جيلوم في باكستان، واجه خصمًا سيكون من أبرز من ارتبطت أسماؤهم بحملته في الهند الملك بوروس.

بوروس ومعركة الهيداسبس

كان بوروس حاكمًا محليًا قويًا، وقد قرر مواجهة الإسكندر بدل الاستسلام له. وتشير الروايات القديمة إلى أن جيشه ضم مشاة وفرسانًا وعربات حربية وفيلة، وكانت الفيلة عنصرًا أثار اهتمام الكتاب اليونانيين؛ إذ لم تكن هذه الحيوانات مألوفة للجيش المقدوني بالمستوى نفسه الذي واجهه في الهند.

كانت الفيلة الحربية قادرة على إحداث اضطراب في صفوف المشاة والخيول، كما أن حجمها وصوتها وحركتها قد تربك الجنود الذين لم يعتادوا مواجهتها. لكنها لم تكن سلاحًا لا يُقهر؛ ففاعليتها تتوقف على تدريبها، وعلى قدرة الجنود المصاحبين لها على توجيهها، وعلى ظروف الأرض، وعلى مدى تماسك الجيش المقابل.

واجه الإسكندر أيضًا مشكلة النهر. فقد كان بوروس يراقب الضفة المقابلة، وكان عبور الجيش مباشرة في مواجهة قواته سيعرض المقدونيين لخطر كبير. لذلك اعتمد الإسكندر على المناورة، مستفيدًا من التحركات التي قد توهم الخصم بأن الجيش يستعد للعبور في أكثر من موضع.

وتروي المصادر أنه اختار نقطة عبور أبعد عن المعسكر الرئيسي، مستفيدًا من موقع يسمح بتقليل قدرة بوروس على التدخل الفوري. لكن تفاصيل العبور، وعدد القوات التي شاركت في كل مرحلة، وترتيب التحركات، لا يمكن تثبيتها كلها بالدرجة نفسها من اليقين. بعد عبور النهر، اندلعت المعركة عام ٣٢٦ ق.م. واستطاع جيش الإسكندر التغلب على قوات بوروس، رغم أن الفيلة فرضت تحديات على الجنود والخيول. لم يكن النصر نتيجة سلاح واحد، بل لتنسيق القوات واستغلال الأرض، وقدرة الجيش المقدوني على مواصلة القتال رغم اختلاف طبيعة الخصم.

وتذكر الروايات أن بوروس أُسر أو وقع في يد الإسكندر بعد المعركة، وأن الملك المنتصر سأله كيف يريد أن يُعامل، فأجاب بما معناه عاملني كملك. وتُروى القصة بصيغ مختلفة، ولذلك لا ينبغي اعتبار الحوار حرفيًا مؤكدًا. لكن النتيجة السياسية التي تذكرها المصادر واضحة في خطوطها العامة احتفظ بوروس بمكانة حاکمة في جزء من أراضيه، وأصبح حليفًا للإسكندر بدل أن يُستبدل بالكامل.

كانت هذه السياسة عملية من جهة؛ فالإبقاء على حاكم محلي قادر على إدارة أرضه قد يكون أكثر فاعلية من محاولة السيطرة المباشرة على كل قرية ومدينة. كما أنها سمحت للإسكندر بتقديم نفسه ملكًا يعاقب خصومه أو يكافئ المتعاونين معه. ومع ذلك، لم يكن هذا الترتيب مساواة بين الطرفين، بل علاقة نشأت بعد هزيمة عسكرية، وظلت مرتبطة بميزان القوة الجديد.

الفيلة والخيول والخوف في ساحة المعركة

تكشف معركة الهيداسبس جانبًا مهمًا من تاريخ الحرب القديمة أن السلاح لا يعمل بمعزل عن أثره النفسي. فالفيلة لا تقتل بقدرتها على الدوس أو الهجوم فقط؛ إذ يمكن لحضورها أن يثير الخوف والارتباك في صفوف الجنود والخيول، خصوصًا عندما يواجهونها للمرة الأولى.

وفي المقابل، يمكن للحيوان نفسه أن يصبح خطرًا على الجيش الذي يستخدمه إذا جرح أو فقد السيطرة عليه. فالفيل المصاب قد يندفع في اتجاه غير متوقع، ويؤدي جنود الطرفين، كما أن نجاح استخدام الفيلة يتطلب رعاية وإطعامًا وتدريبًا ونقلًا مناسبًا. وكانت الخيول بدورها حساسة للضوضاء والروائح والحيوانات غير المألوفة. لذلك لم يكن التعامل مع الفيلة

مسألة مواجهة مباشرة بين جندي وحيوان ضخّم فحسب، بل مسألة تدريب وانضباط وتكيف مع عنصر جديد في ميدان القتال.

ولا ينبغي أن نتصور أن الجيش المقدوني كان عاجزاً تماماً عن التعامل مع الفيلة قبل الهند؛ فقد عرفها العالم الهلنستي عبر الاحتكاك بمناطق شرقية. لكن كثافة استخدامها في بعض الجيوش الهندية وطبيعة المواجهة جعلتها تحدياً بارزاً في هذه الحملة.

كما أن المعركة أظهرت أهمية البيئة. فالأنهار والأمطار والطين واتساع الأرض يمكن أن تؤثر في حركة الفرسان والعربات والمشاة، وتجعل الخطة التي تبدو مثالية على الورق أقل فاعلية عند التنفيذ. كان على القائد أن يتعامل مع الأرض والطقس والحيوانات والإرهاق بقدر تعامله مع قرارات الخصم.

لماذا توقف الإسكندر عند نهر الهيفاسيس؟

بعد انتصاره على بوروس، واصل الإسكندر التقدم شرقاً حتى بلغ نهر الهيفاسيس، المعروف اليوم باسم بياس في شمال الهند. وهناك واجه موقفاً مختلفاً عن كل ما سبق رفض جنوده مواصلة التقدم.

تختلف الروايات في تصوير ما جرى وفي الكلمات التي قيلت، لكن الجوهر أن الجيش كان قد أمضى سنوات في حملات متواصلة، وابتعد عن موطنه مسافات هائلة، وخاض معارك متكررة، وعبر أنهاراً ومناطق لم يكن يعرفها. وقد سمع الجنود أيضاً عن قوى وممالك أخرى تقع إلى الشرق، وعن جيوش وفيلة وموارد لم يختبروها بعد. لا يمكن اختزال رفضهم في الجبن أو ضعف العزيمة. فالجنود كانوا بشراً تحملوا سنوات من السير والقتال والإصابات

والأمراض، وكان عليهم أن يفكروا في العودة، وفي عائلاتهم، وفي مستقبلهم بعد انتهاء الحرب. كما أن القادة أنفسهم كانوا يدركون أن كل تقدم جديد يزيد صعوبة الإمداد والاتصال بالمناطق التي أصبحت تحت سيطرتهم.

كان الإسكندر قد اعتاد دفع جيشه إلى تجاوز الحدود التي تبدو مستحيلة، لكنه لم يستطع تجاهل رفض جماعي من الجنود الذين يعتمد عليهم. فالقائد الذي يستطيع إصدار الأوامر لا يستطيع ضمان تنفيذها إلى ما لا نهاية، وخصوصًا عندما يكون الجيش بعيدًا عن قواعده ويشعر أفرادُه بأن الهدف يتغير باستمرار.

وتذكر الروايات أن الإسكندر غضب واعتزل فترة، على أمل أن يتراجع الجنود عن موقفهم. لكنه اضطر في النهاية إلى قبول العودة غربًا. وأقيمت مذابح أو علامات احتفالية عند النهر بحسب الروايات، لتشير إلى نهاية مرحلة من التقدم.

لم يكن ذلك نهاية طموح الإسكندر، بل حدًا فرضته ظروف الحملة وإرادة الجيش. فقد حقق انتصارات واسعة، لكنه لم يستطع تحويل كل رغبة شخصية في مواصلة الفتح إلى قرار قابل للتنفيذ. وهنا تظهر حقيقة كثيرًا ما تغيب في القصص البطولية الإمبراطوريات لا تتوسع بإرادة الحاكم وحده؛ بل بقدرة الجنود والموارد والطرق والإدارة على تحمل التوسع.

العودة عبر الأنهار

بعد التراجع عن الهيفاسيس، بدأ الجيش رحلة العودة. ولم تكن العودة طريقًا سهلًا أو تكرارًا عكسيًا للرحلة السابقة. فقد قرر الإسكندر استكشاف أجزاء من مجرى نهر السند، وأرسل قواته عبر مسارات مختلفة، مستخدمًا السفن

في بعض مراحل الحركة. ساعدت الملاحاة النهرية على نقل الجنود والمؤن، لكنها حملت مخاطرها أيضًا. فالأنهار الكبيرة تتغير سرعتها وعمقها بحسب الموسم، وقد تكون ضفافها مواضع كمائن أو مناطق يصعب النزول فيها. كما أن السفن تحتاج إلى طواقم وخبرة في المياه المحلية، ولا تستطيع وحدها حل مشكلات نقل الخيول والمعدات الثقيلة.

وخلال الحملة على يد جماعات محلية قرب نهر السند، تعرض الإسكندر لإصابة خطيرة أثناء هجوم على حصن تابع للماليين، وهم جماعة تذكرها المصادر اليونانية بهذا الاسم. وتروي المصادر أنه تسلق جدار الحصن مع بعض جنوده، ثم وجد نفسه داخل الحصن قبل وصول عدد كافٍ من رجاله. وأصيب بسهم اخترق جسده، وكاد يموت.

تختلف التفاصيل الطبية التي تنقلها الروايات، ولا يمكن الجزم بكل ما يقال عن موضع السهم وطريقة إخراجه. لكن الإصابة كانت خطيرة بما يكفي لتثير قلق الجيش بشأن مصير الملك. فالإسكندر لم يكن مجرد قائد عسكري يمكن استبداله بسهولة؛ بل كان مركز السلطة، والرابط الذي يجمع قادة من أصول ومصالح مختلفة.

وعندما تعافى وظهر أمام جنوده، كان لذلك أثر يتجاوز الجانب الصحي. فقد طمأنهم إلى أنه ما زال حيًا وقادرًا على القيادة، بينما أظهرت الحادثة أن الجرأة التي ساعدته على تحقيق الانتصارات قد تعرضه أيضًا لخطر فقدان كل ما بناه. كانت العودة عبر الأنهار مرحلة من مراحل الاستكشاف العسكري والجغرافي، لكنها كانت أيضًا تذكيرًا بكلفة التوسع. فكل منطقة جديدة تفتح مجالًا للنفوذ والتجارة، لكنها تفرض في الوقت نفسه التزامات جديدة، وتعرض الجيش لمخاطر لا يمكن التنبؤ بها بالكامل.

ومع اقتراب الحملة من مراحلها الأخيرة في الشرق، لم يعد السؤال هو مقدار الأرض التي يستطيع الإسكندر الوصول إليها، بل ما إذا كان سيتمكن من إعادة جيشه إلى مراكز سلطته، والاحتفاظ بالأقاليم التي أخضعها، وتحويل انتصاراته إلى نظام حكم يستمر بعده.

من صحراء جدروسيا إلى موت الإسكندر إمبراطورية بلا وريث

جدروسيا حين هزم الطريقُ الجيشَ

بعد حملته في الهند، اتجه الإسكندر غربًا، لكنه لم يختَر طريق العودة الأسهل. فقد قرر عبور جدروسيا، وهي منطقة قاحلة تقع في أجزاء من جنوب شرق إيران وباكستان الحاليتين، وتضم مساحات صحراوية شديدة القسوة. ولا تزال دوافع هذا القرار موضع نقاش؛ فقد يكون أراد استكشاف طريق جديد، أو إظهار قدرته على اجتياز مناطق اعتُبرت صعبة، أو تأمين مسارات تربط أطراف مملكته. لكن لا يمكن الجزم بأن سببًا واحدًا يفسر قراره.

كانت جدروسيا مختلفة عن ساحات المعارك التي عرفها الجيش المقدوني. ففي المعركة، يستطيع القائد أن يحدد هدفًا عسكريًا واضحًا، وأن يركز قواته في منطقة معينة. أما في الصحراء، فقد يصبح الماء أهم من السلاح، ويغدو العثور على مصدر صالح للشرب مسألة حياة أو موت.

احتاج الجنود إلى حمل المؤن والمعدات عبر مسافات طويلة، وكانت الحيوانات التي تحمل الأثقال تستهلك الماء والطعام بدورها. ومع ارتفاع الحرارة ونقص الموارد، بدأت القدرة على مواصلة السير تتراجع. ولم يكن بالإمكان تعويض كل ما ينفد بسهولة، لأن القوافل لا تستطيع نقل كميات غير محدودة، ولأن مصادر المياه قد تكون متباعدة أو غير كافية لجيش كبير.

تروي المصادر القديمة أن الحملة شهدت خسائر فادحة، وأن كثيرًا من الرجال والحيوانات ماتوا بسبب العطش والإرهاق ونقص الغذاء. وتختلف الروايات في حجم الخسائر، وربما بالغ بعضها في تصوير الكارثة، لكن عبور منطقة بهذه الظروف كان يحمل مخاطر حقيقية، ولا سيما مع العدد الكبير من الجنود والمرافقين والحيوانات.

تكشف هذه الحملة جانبًا لا يظهر كثيرًا في قصص الفتوحات قد ينجح الجيش في هزيمة خصم قوي، ثم يتعرض لخسائر جسيمة بسبب قرار يتعلق بالطريق والإمداد. فالقوة العسكرية لا تعني أن الإنسان يستطيع تجاوز حدود الطبيعة، ولا أن نجاح القائد في المعارك يضمن نجاحه في كل الظروف.

كما تكشف الحملة أن معرفة الأرض ليست تفصيلًا ثانويًا. فالمسار الذي يبدو ممكنًا على الخريطة قد يكون خطيرًا في الواقع، والموضع الذي يصلح لعبور مجموعة صغيرة قد يعجز عن تلبية احتياجات جيش كامل. ولذلك كان على الجيوش القديمة أن تعتمد على الأدلاء، ومعرفة مصادر المياه، وتنظيم القوافل، وتوزيع المؤن، وهي عناصر قد تحسم مصير حملة بقدر ما تحسمه السيوف والرماح.

وعندما خرج الإسكندر وجزء كبير من قواته من هذه المنطقة، كان الجيش قد دفع ثمنًا باهظًا. ولم تكن الخسائر مجرد أرقام؛ فقد فقدت الحملة رجالًا خدموا سنوات طويلة، وتضررت حيوانات النقل، واضطربت حركة الإمداد. وكان على القيادة أن تعيد تنظيم قواتها وتوفر لها الراحة والمؤن قبل أن تتمكن من استئناف العمل السياسي والعسكري.

أوروبوس الثروة لا تعني الاستقرار

واصل الإسكندر طريقه نحو مراكز الحكم في الشرق، وعاد إلى مناطق كانت قد أصبحت جزءاً من سلطته. وخلال هذه المرحلة، لم يعد همه قيادة حملة متصلة من المعارك وحدها؛ بل أخذ يعمل على إعادة تنظيم الإدارة والجيش، ومحاولة ربط الأقاليم المختلفة بنظام حكم يستطيع الاستمرار.

كانت الإمبراطورية التي ورثها من الفرس واسعة ومتنوعة. ففيها مدن قديمة ذات مؤسسات دينية واقتصادية، وأقاليم يحكمها زعماء محليون، وطرق تربط مناطق بعيدة، وخزائن تحتاج إلى إدارة، وجيوش وحاميات تتطلب الرواتب والإمداد. ولم يكن في وسع الإسكندر أن يدير كل ذلك بنفسه، مهما كانت قدرته على الحركة واتخاذ القرار.

لهذا احتاج إلى مزيج من القوة والتفاوض. فقد أبقى على بعض الترتيبات الإدارية السابقة، واستخدم مسؤولين محليين، لكنه عين أيضاً قادة مقدونيين في مواقع مهمة. ولم يكن هذا النظام ثابتاً في جميع الأقاليم؛ إذ اختلفت طبيعة الحكم باختلاف الظروف، كما تفاوتت العلاقة بين السلطة المركزية والقيادات المحلية.

لكن تعدد المسؤولين لم يضمن الانضباط. فقد ظهرت حالات من استغلال السلطة وسوء الإدارة، وكان بعض الحكام المحليين أو القادة العسكريين يتصرفون وكأن المسافة التي تفصلهم عن الملك تمنحهم حرية واسعة. وكانت مراقبة الأقاليم البعيدة مهمة صعبة، خصوصاً حين لا تتوافر وسائل اتصال سريعة، وحين يحتاج وصول أمر ملكي إلى أيام أو أسابيع بحسب المسافة والطريق.

أدرك الإسكندر أن السيطرة على الخزائن والمدن لا تكفي إذا لم تستطع السلطة المركزية متابعة موظفيها. فالمال الذي يجمعه المسؤولون ينبغي أن يصل إلى خزائن الدولة، والجنود الذين يُعينون في الحاميات يجب أن يتلقوا مؤنهم ورواتبهم، والطرق التي تستخدمها التجارة والجيش تحتاج إلى حماية.

وكان هذا التحدي من المشكلات الأساسية التي واجهت كثيرًا من الإمبراطوريات القديمة كلما اتسعت رقعتها، ازدادت الحاجة إلى إدارة متخصصة، لكن اتساع المسافات جعل مراقبة الإدارة أكثر صعوبة. وقد استطاع الإسكندر إخضاع مناطق شاسعة، إلا أن تحويل هذا الاتساع إلى نظام مستقر ظل مشروعًا لم يكتمل في حياته.

الجيش الذي تغير مع صاحبه

عاد الإسكندر من حملاته الشرقية بجيش يختلف عن الجيش الذي غادر مقدونيا معه قبل سنوات. فقد خاض الجنود معارك في آسيا الصغرى وبلاد الرافدين ومصر وآسيا الوسطى والهند، وواجهوا حصونًا وأنهارًا وجبالًا وصحاري. واكتسبوا خبرات عسكرية واسعة، لكنهم تحملوا أيضًا خسائر وإرهاقًا وتراكمًا من الخلافات.

وفي الوقت نفسه، تغيرت طبيعة الجيش مع توسع الإمبراطورية. فقد دخلت قوات من مناطق مختلفة في الخدمة، واستخدم الإسكندر بعض الجنود المحليين، وسعى إلى تدريب مجموعات من الشبان الإيرانيين على الأساليب العسكرية المقدونية. وكان الهدف المعلن والعمل توسيع قاعدة القوة العسكرية، وتقليل الاعتماد الكامل على المقدونيين وحدهم.

لكن هذا التغيير أثار مخاوف بين الجنود المقدونيين. فقد رأى بعضهم أن الملك يمنح الوافدين الجدد فرصًا ومكانة كان ينبغي أن تبقى لأصحاب الفتوحات الأولى. كما أن قبول عناصر جديدة في الجيش لم يكن مجرد مسألة تدريب على استخدام السلاح؛ بل كان يعني إعادة تحديد من يستطيع الاقتراب من الملك، ومن يحصل على المكافآت، ومن يشغل المناصب.

لم يكن الجيش كتلة متجانسة تتفق دائمًا على رؤية واحدة. فقد ضم جنودًا وقادة تختلف أعمارهم وخبراتهم ومصالحهم، وكان بعضهم يريد مواصلة التوسع، بينما أراد آخرون العودة إلى ديارهم. وكان الملك يحتاج إلى إبقاء هذا الخليط متماسكًا، لأن نجاح حملاته اعتمد على ولاء رجاله بقدر اعتماده على مهارته الشخصية.

زواج جماعي في شوش

في عام ٣٢٤ ق.م، أقام الإسكندر في شوش احتفالًا بزواج عدد من رجاله من نساء من عائلات إيرانية، كما تزوج هو من نساء من الأسرة الملكية الفارسية. وكان من بين زيجاته في هذه المرحلة زواجه من ستاتيرا، ابنة داريوس الثالث، وباريساتيس، ابنة الملك الأخميني أرتخشستا الثالث. وكان متزوجًا قبل ذلك من روكسانا.

تذكر المصادر القديمة أعدادًا كبيرة من الزيجات التي جرت في شوش، وتختلف التفاصيل بحسب الرواية. ومن المهم ألا نتخيل الحدث بوصفه لقاءً اجتماعيًا عاديًا؛ فقد كان احتفالًا ملكيًا ذا أهداف سياسية، سعى من خلاله الإسكندر إلى إنشاء روابط بين بعض قادته والنخب الإيرانية. كانت الزيجات الملكية وسيلة معروفة في السياسة القديمة. فقد تساعد على تثبيت تحالف، أو تقريب عائلات نافذة من السلطة، أو تقديم صورة عن وحدة سياسية

جديدة. لكن الزواج لا يعني بالضرورة أن جميع الأطراف تخلت عن هويتها أو مصالحتها السابقة، كما أنه لا يضمن اختفاء التوترات بين الجماعات.

ويجب الانتباه إلى أن المصادر اليونانية واللاتينية هي التي نقلت إلينا معظم تفاصيل هذا الحدث. وهي تصفه أحياناً بوصفه مشروعاً ضخماً للمزج بين المقدونيين والفرس، لكننا لا نملك ما يكفي للقول إن المجتمع بأكمله شارك في هذا المشروع أو تبناه. فقد بقيت الفروق في اللغة والعادات والمكانة السياسية قائمة، ولم تكن العلاقات بين الجماعات متساوية في كل موضع.

كما أن النساء اللواتي دخلن هذه الزيجات نادراً ما تظهر أصواتهن في الروايات. نعرف أسماء بعضهن وصلاتهن العائلية، لكننا لا نعرف تفاصيل كثيرة عن اختياراتهن الشخصية أو حياتهن اليومية بعد الزواج. وهذه فجوة متكررة في تاريخ الملوك القدماء؛ إذ تسجل المصادر القرارات السياسية الكبرى، بينما تترك تجارب النساء اللواتي ارتبطت حياتهن بها في الظل.

لم يكن مشروع الإسكندر مجرد نشر العادات اليونانية في الشرق، ولا مجرد تبني العادات الشرقية في البلاط. لقد حاول بناء نظام يستطيع فيه المقدونيون والإيرانيون وبعض النخب المحلية العمل داخل سلطة واحدة، لكن هذا المشروع ظل مرتبطاً بشخصه، ولم يكن قد تحول إلى ترتيب مستقر قبله جميع الأطراف.

تمرد أوبس غضب الجنود

في عام ٣٢٤ ق.م، وقعت أزمة خطيرة في أوبس، وهي مدينة تقع على نهر دجلة. فقد أعلن الإسكندر خطاً تتعلق بتسريح عدد من الجنود المقدونيين وإعادتهم إلى بلادهم، في وقت كان يعمل فيه على توسيع مشاركة قوات من

أصول أخرى في الجيش. واعتقد بعض الجنود أن الملك لم يعد يحتاج إليهم كما كان يحتاج إليهم في بداية الحملة.

لم يكن غضبهم متعلقاً بقرار واحد فقط. فقد أمضوا سنوات بعيداً عن وطنهم، وخاضوا معارك متواصلة، ورأوا أن طبيعة الجيش ومكانتهم لدى الملك تتغيران. وكان بعضهم يشعر بأن الوافدين الجدد سيحصلون على امتيازات وفرص قد تقلل من قيمة خدمتهم الطويلة. تصاعد التوتر حتى واجه الجنود الملك باعتراضهم. وتذكر الروايات أن الإسكندر رد بغضب، وانتقد موقفهم، وأمر باعتقال بعض المحرضين أو معاقبتهم بحسب ما تنقله المصادر. ثم لجأ إلى خطوة سياسية مؤثرة حين أظهر أنه قادر على الاستمرار في إدارة الجيش من دون الاعتماد المطلق على المقدونيين، قبل أن يسعى إلى المصالحة. وتذكر المصادر أن المصالحة تضمنت مأدبة كبيرة شارك فيها المقدونيون والإيرانيون، وأنها حملت معنى رمزياً يتعلق بوحدة الجيش. لكن لا ينبغي أن نفهم هذا المشهد على أنه أنهى جميع الخلافات؛ فالمأدبة قد تُظهر نجاح الملك في تهدئة الأزمة، لكنها لا تثبت أن التوترات الاجتماعية والسياسية اختفت. كانت أزمة أوبس لحظة كاشفة. فالجنود الذين ساعدوا الإسكندر على إسقاط الإمبراطورية الفارسية لم يروا بالضرورة أن عليهم قبول كل تغيير يقرره بعد النصر. وكان الملك يريد جيشاً يناسب مملكته الواسعة، بينما أراد كثير من المقدونيين الحفاظ على امتيازاتهم وعلى صورتهم لأنفسهم بوصفهم القوة التي صنعت الفتح. وقد بينت الأزمة أن الإمبراطورية الجديدة لم تكن مجرد مجموعة من الأراضي التي تخضع لملك واحد، بل كانت مشروعاً لإعادة ترتيب العلاقات بين الجنود والقادة والشعوب والنخب. وكل محاولة لتغيير هذه العلاقات كانت تثير أسئلة حول من يملك السلطة، ومن يشارك في صنعها، ومن يحصل على نصيب من مواردها.

هيفايستيون فقدان الرفيق الأقرب

في أواخر عام ٣٢٤ ق.م، توفي هيفايستيون، أحد أقرب رفاق الإسكندر إليه، في إكباتانا، المعروفة اليوم باسم همدان في إيران. كان هيفايستيون قائداً عسكرياً وصاحب مكانة كبيرة في البلاط، وقد رافق الإسكندر خلال حملاته. ولا تسمح لنا المصادر بتحديد طبيعة علاقتهما الشخصية بكل تفاصيلها، لكنها تُظهر بوضوح أن الإسكندر اعتبر وفاته خسارة عميقة.

تذكر الروايات أن الإسكندر حزن بشدة، وأقام مراسم حداد واسعة، وسعى إلى تنظيم جنازة تليق بمكانة هيفايستيون. كما ارتبطت وفاته بقرارات وطقوس تبرز مقدار المكانة التي منحها له الملك. غير أن بعض التفاصيل الدرامية التي نقلها الكتاب القدماء قد تكون تأثرت برغبتهم في تصوير حزن الإسكندر أو تضخيمه.

لم يكن هيفايستيون مجرد صديق في الحياة الخاصة؛ فقد كان قائداً يستطيع الإسكندر الاعتماد عليه في شؤون عسكرية وسياسية. ولذلك فإن فقدانه قد يكون أثر في شبكة الثقة التي اعتمد عليها الملك، فضلاً عن أثره العاطفي.

وكانت هذه الخسارة تأتي في وقت حساس. فالإسكندر كان يحاول إدارة إمبراطورية شاسعة، وتهدة الخلافات داخل الجيش، وتنظيم حملات جديدة. وقد جعلته وفاة أحد أقرب المقربين إليه يواجه جانباً من هشاشة الحياة الشخصية، حتى في ذروة السلطة. لكن لا يمكن أن نثبت أن حزنه هو الذي أدى إلى قرارات محددة اتخذها بعد ذلك، أو أن وفاته تفسر وحدها ما جرى في الشهور التالية. فالمصادر القديمة تميل أحياناً إلى ربط الأحداث في قصة متماسكة حول شخصية الملك، بينما كانت القرارات السياسية والعسكرية تتأثر بعوامل متعددة.

بابل الاستعداد لحملات جديدة

عاد الإسكندر إلى بابل، التي أصبحت مركزاً مهماً لخطته. وكان يريد توسيع شبكة المواصلات البحرية والبرية، وتنظيم الأسطول، وربط مناطق الخليج بطرق التجارة والموانئ. كما بحث في مشروعات تتعلق بالرحلات البحرية واستكشاف السواحل، في إطار سعيه إلى فهم المجال الذي أصبح تحت سلطته واستثماره.

لم تكن هذه الخطط دليلاً على أن الإسكندر كان يملك تصوراً كاملاً لكيفية إدارة إمبراطوريته بعده. فقد كانت بعض المشروعات لا تزال في مراحل التخطيط أو التجهيز، وكانت مملكته تحتاج إلى ترتيبات واضحة بشأن الخلافة، والقيادة العسكرية، والعلاقة بين الأقاليم المختلفة.

كما ظلت بابل مركزاً بالغ الأهمية بسبب موقعها وثروتها وارتباطها بطرق التجارة والأنهار. وقد أمكن استخدامها قاعدة لإدارة الحركة بين مناطق الإمبراطورية، لكن وجود الملك في مدينة واحدة لم يكن كافياً لضمان استقرار كل الأقاليم البعيدة.

وفي هذه الأثناء، كانت مسألة الوريث تزداد خطورة. لم يكن للإسكندر ابن بالغ يستطيع تولي الحكم، ولم يكن هناك ترتيب واضح ومقبول من الجميع لنقل السلطة بعد وفاته. وكان لديه ابن لم يولد بعد، من روكسانا، لكن الحمل لم يكن قد انتهى في حياته. لم تكن هذه المشكلة خاصة بالإسكندر وحده؛ فقد واجهت الملكيات القديمة صعوبة متكررة حين يموت الحاكم من دون وريث بالغ متفق عليه. فالجيش يحتاج إلى قائد، والموظفون يحتاجون إلى أوامر، والأقاليم تحتاج إلى سلطة تحسم النزاعات. وعندما لا توجد قواعد واضحة للخلافة، قد تتحول مكانة القائد أو قوة جيشه إلى وسيلة للمطالبة بالعرش.

موت الإسكندر عام ٣٢٣ ق.م

في بابل، مرض الإسكندر بعد سلسلة من الولايم والاجتماعات والاستعدادات العسكرية. وتذكر المصادر القديمة أنه أصيب بحمى استمرت عدة أيام، وأن حالته تدهورت حتى توفي في يونيو/حزيران عام ٣٢٣ ق.م، وكان في الثانية والثلاثين من عمره تقريبًا. لكن سبب موته لا يزال غير محسوم. فقد طُرحت تفسيرات مختلفة، منها الأمراض المعدية أو الحمى الشديدة أو مضاعفات صحية أخرى. كما ظهرت في روايات لاحقة فرضية التسميم، لكن لا يوجد دليل حاسم يثبتها. ولا يمكن تشخيص مرضه بدقة اعتمادًا على الأوصاف القديمة وحدها، لأنها لم تكن مكتوبة وفق المعرفة الطبية الحديثة، كما أن تفاصيلها لا تتطابق دائمًا.

كان موته مفاجئًا من الناحية السياسية، حتى لو سبقته أيام من المرض. فقد كان الملك هو المحور الذي اجتمعت حوله القيادة العسكرية والسلطة الإدارية والشرعية السياسية. ولم يكن هناك وريث بالغ يستطيع أن يحل محله فورًا ويضمن طاعة جميع القادة. تروي بعض المصادر أن الإسكندر سئل عن يترك له مملكته، وأن إجابته فُهمت على أنها إشارة إلى الأقوى. لكن الصياغة الدقيقة للقصة موضع شك، وربما عكست الصراعات التي تلت موته أكثر مما حفظت كلمات مؤكدة قالها في لحظاته الأخيرة. ومن الأفضل ألا نبني تفسير انهيار الوحدة على عبارة واحدة لا نستطيع التحقق منها. كان الإسكندر قد هزم داريوس، واستولى على عواصم فارسية، وفتح مصر وأجزاء واسعة من آسيا، ووصل بجيشه إلى الهند. لكنه لم يترك نظامًا واضحًا ومقبولًا لتوزيع السلطة بعده. وقد أظهرت وفاته أن الإمبراطورية التي تعتمد بدرجة كبيرة على شخصية قائدها يمكن أن تصبح عرضة للانقسام حين يغيب ذلك القائد.

إمبراطورية تنتظر من يحكمها

بعد موت الإسكندر، واجه قادته سؤالاً لا يقل صعوبة عن أسئلة الحرب من يملك الحق في الحكم؟ لم يكن الجيش ولا الإدارة ولا الأقاليم كتلة واحدة، بل كانت تضم قادة طموحين، ومقدونيين متمسكين بامتيازاتهم، ونخباً محلية تحاول حماية مصالحها، وشعوباً لم تكن علاقتها بالسلطة الجديدة متشابهة في كل مكان.

كانت روكسانا حاملاً بابن الإسكندر، الذي سيولد لاحقاً ويُعرف باسم الإسكندر الرابع. وكان للإسكندر أيضاً أخ غير شقيق، أرهيداوس، الذي سيُعرف باسم فيليب الثالث. لكن وجود هذين الاسمين لم يحسم مسألة الحكم؛ فالأول لم يكن قد وُلد بعد، والثاني لم يكن قادراً على إدارة الإمبراطورية منفرداً، وأصبحت السلطة الفعلية مرتبطة بالقادة الذين يملكون الجيوش والقدرة على فرض قراراتهم.

في البداية، جرت محاولات لتقاسم السلطة باسم الأسرة الملكية. لكن الاتفاقات كانت هشة، لأن كل قائد كان يخشى أن يمنح الآخرين نفوذاً أكبر من نفوذه، ولأن السيطرة على إقليم أو جيش قد تتحول سريعاً إلى أساس للمطالبة بحكم أوسع. وكانت المسألة تتجاوز الخلاف على لقب الملك. فمن يسيطر على الخزائن يستطيع دفع رواتب الجنود، ومن يسيطر على الطرق يستطيع تحريك القوات، ومن يملك دعم المدن والنخب المحلية يستطيع الاحتفاظ بالإقليم. لذلك لم يكن الصراع مجرد جدال حول الشرعية الوراثية، بل منافسة على أدوات الحكم نفسها. وهكذا بدأت الحروب بين قادة الإسكندر، الذين يُعرفون باسم الديادوخوس أو خلفاء الإسكندر. ولم تُحسم الخلافات بسرعة، بل امتدت عبر سنوات طويلة، وتغيرت خلالها التحالفات والحدود، وسقط قادة وظهرت أسر

حاكمة جديدة. لم تستمر إمبراطورية الإسكندر موحدة بالشكل الذي تركها عليه، لكن ذلك لا يعني أن مشروعه اختفى. فقد بقيت المدن التي أسسها أو أعاد تنظيمها، وانتقلت الجيوش والسكان والتجار بين مناطق واسعة، وأصبحت اللغة اليونانية أداة مهمة للإدارة والتجارة والثقافة في أجزاء كبيرة من الشرق. ومن هذا التفكك ستنشأ ممالك جديدة، أهمها دولة البطالمة في مصر، والدولة السلوقية في أجزاء واسعة من آسيا، ومملكة مقدونيا التي ستخضع لحكام من خلفائه. ولن تكون هذه الممالك نسخًا متطابقة من اليونان أو من الإمبراطورية الفارسية؛ بل ستتشكل من تفاعل طويل بين مؤسسات وثقافات ولغات وتقاليد متعددة. وهنا يبدأ عصر جديد في التاريخ اليوناني والشرقي معًا العصر الهلنستي، الذي لم يعد فيه العالم اليوناني محصورًا في مدن بحر إيجة، بل امتد إلى مراكز كبرى في مصر وبلاد الشام وبلاد الرافدين وآسيا الوسطى، حيث ستنشأ أشكال جديدة من الحكم والعلم والفن والحياة اليومية.

ممالك خلفاء الإسكندر حين انقسمت الإمبراطورية

من يتولى ميراث الملك؟

في البداية، لم يكن تفكيك الإمبراطورية أمرًا محسومًا. فقد حاول بعض القادة الإبقاء على وحدة اسمية للدولة تحت حكم الملكين، بينما تولى القادة الكبار إدارة الأقاليم وقيادة الجيوش. لكن هذه الصيغة أخفت وراءها تنافسًا متزايدًا؛ إذ لم يكن واضحًا من يملك القرار النهائي، ولا من يستطيع عزل حاكم إقليم أو تعيين قائد جديد. ومن أبرز الشخصيات التي برزت في هذه المرحلة بيرديكاس، الذي تولى دورًا قياديًا في إدارة شؤون المملكة بعد وفاة الإسكندر. وكان بطليموس، أحد قادة الإسكندر، قد حصل على ولاية مصر،

بينما امتلك أنتيغونوس نفوذًا واسعًا في آسيا الصغرى، وتولى سلوقس مواقع مهمة في بابل لاحقًا. أما أنتيباتر، الذي كان مسؤولًا عن مقدونيا واليونان خلال غياب الإسكندر في حملاته، فاحتفظ بنفوذ قوي في الغرب.

لم تكن هذه المناصب دولًا مستقلة منذ اللحظة الأولى، لكنها تحولت تدريجيًا إلى قواعد قوة خاصة. فالحاكم الذي يسيطر على إقليم غني يستطيع تمويل جيشه، وتعيين مسؤوليه، وبناء شبكة من التحالفات. ومع مرور الوقت، يصبح من الصعب عليه التخلي عن هذه السلطة لمصلحة مركز لا يثق بقدرته على حمايته أو مكافأته. وهكذا تحولت مسألة الخلافة إلى صراع على الموارد والطرق والمدن والجيش. لم يعد السؤال من هو الوريث الشرعي للإسكندر؟ بل أصبح أيضًا من يستطيع الاحتفاظ بما في يده، ومن يستطيع انتزاع المزيد من خصومه؟

أغرب القوانين والعادات الاجتماعية

حظر البدانة في سبارتا (إسبرطة)

كان الإسبرطيون يقدسون اللياقة البدنية إلى حد التطرف. كان هناك فحص دوري كل ١٠ أيام لجميع الشباب؛ ومن يُضبط ولديه كرش أو زيادة في الوزن، كان يُعرض للجلد علناً ويُنفى أو يُغرم لأنه اعتُبر عبثاً على الدولة.

الانتخاب بحبات الفول

في الديمقراطية الأثينية، لم يكن هناك صناديق اقتراع ورقية، بل كانوا يستخدمون الفول! الحبة البيضاء تعني نعم أو اختيار مرشح معين، والحبة السوداء تعني لا. ومن هنا جاء التعبير اليوناني القديم احذروا الفول والذي كان يعني سياسياً احذروا الدخول في معترك السياسة والانتخابات.

النفي الديمقراطي (الأوستراكيزم)

كان يحق لمواطني أثينا التصويت مرة كل عام لنفي أي شخص يرون أنه أصبح محبوباً أكثر من اللازم أو يهدد الديمقراطية بنفوذه. كانوا يكتبون اسمه على شظايا الفخار (Ostraca)، وإذا حصل على عدد أصوات معين، يُنفي من المدينة لمدة ١٠ سنوات!

أسرار الطب واليوميات اليونانية (التشخيص بالتذوق)

الأطباء اليونانيون القدماء، وعلى رأسهم أبو الطب أبقراط، كانوا يكتشفون الأمراض بتذوق السوائل الحيوية للمريض (مثل العرق، البول، وحتى شمع الأذن). كان أبقراط يعتقد أن تغير طعم السوائل يكشف الخلل في أخلاط الجسم الأربعة.

تماثيلهم لم تكن بيضاء

الصورة النمطية لليونان القديمة هي التماثيل والمعابد الرخامية البيضاء الناصعة. لكن الحقيقة التاريخية الصادمة هي أن كل تلك التماثيل والمعابد كانت ملونة بألوان فاقعة جداً (أحمر، أزرق، ذهبي، وأصفر). وبفعل الزمن وعوامل التعرية، اختفت الألوان وبقي الرخام الأبيض.

السجادة الحمراء للملوك فقط

أول ذكر لـ السجادة الحمراء في التاريخ جاء في مسرحية يونانية قديمة للكاتب إيسخيلوس (أجاممنون). وعندما عاد الملك من الحرب، رفض المشي عليها قائلاً إن السير على اللون الأحمر القرمزي هو رفاهية مخصصة للآلهة فقط، لأن المشي عليها يعكس كبرياءً قاتلاً (Hubris).

عبقريّة علمية سابقة لعصرها

أول كمبيوتر في التاريخ (آلة أنتيكيتيرا)

عثر العلماء في حطام سفينة يونانية قديمة على جهاز برونزي معقد يحتوي على عشرات التروس المتحركة. يعود تاريخه لأكثر من ٢٠٠ عام قبل الميلاد، وتبين أنه حاسوب فلكي ميكانيكي فائق الدقة كان يُستخدم لحساب حركة النجوم، الكواكب، وخسوف الشمس بدقة لا تصدق، وهو علم اختفى لقرون بعد سقوط حضارتهم.

اختراع المنبه

الفيلسوف أفلاطون كان يكره النوم الزائد ويخاف أن يفوته موعد درسه الفجر. لذلك اخترع أول منبه في التاريخ، وكان عبارة عن ساعة مائية (Clepsydra) موصولة بأنبوب، وعندما يمتلئ الوعاء بالماء في ساعة معينة، يندفع الهواء بقوة عبر الأنبوب ليصدر صوتاً يشبه الصفير العالي ليوقظه.

Speech مشتقة من اسم الإقليم لاكونيا

كان الإسبرطيون يكرهون الكلام الطويل ويعتبرونه ضعفاً. أشهر قصة أنه عندما هدد الملك فيليب المقدوني (والد الإسكندر الأكبر) إسبرطة قائلاً: إذا غزت أرضكم، سأدمر مدنكم وأستعبد نساءكم، أرسل له قادة إسبرطة رداً مكتوباً من كلمة واحدة فقط: إذاً (If). فراجع فيليب ولم يغزهم!

حرف الـ Digamma المفقود (F)

هناك حرف يوناني قديم جداً يشبه حرف الـ F الإنجليزي تلاشى تماماً من الأبجدية اليونانية الكلاسيكية. اكتشافه لاحقاً في المخطوطات القديمة حلّ ألغازاً عروضية محيرة في أشعار هوميروس (الإلياذة والأوديسة) كانت تبدو مكسورة الوزن للعلماء لفترات طويلة.

لسانٌ عربيٌّ بنكهةٍ إغريقيةٍ (كلماتٌ نردها كل يوم)

قد يظن القارئ العربي أن الثقافة اليونانية القديمة حبيسة المتاحف وكتب الفلسفة، لكن الحقيقة المفاجئة هي أننا نتحدث بجزء منها في تفاصيل يومياتنا البسيطة! فعندما تفتح فانوس سيارتك أو بيتك في المساء، أنت تنطق بالكلمة اليونانية القديمة (Phanos) والتي تعني المشعل المضيء. وإذا جلست في ورشة أو مصنع لتتحدث عن الأسفلت الذي يمهد الطرقات، فاعلم أن الكلمة مشتقة من (Asphaltos) اليونانية وتعني المادة الثابتة التي تمنع الانزلاق. حتى في شؤوننا المالية، عندما نستخدم كلمة كيس (كيس النقود أو الشراء)، فإننا نستعيرها من الكلمة الإغريقية (Kissa). وعندما يذهب المريض إلى المستشفى ليأخذ حقنة شرجية أو علاجية، فإن الأطباء قديماً سموها كلينيك أو إبرة بناءً على أدوات يونانية، والكلمة الشهيرة ترياق (الدواء المضاد للسموم) أصلها اليوناني (Theriakos) وكان يُقصد بها دواء لدغات الوحوش السامة. إنها تشابكات لغوية مذهشة تثبت أن الحضارات لا تموت، بل تذوب في أسنة الشعوب الأخرى لتتحول إلى تفاصيل يومية عادية.

مغناطيس: أصلها (Magnes lithos) وتعني حجر ماغنيسيا، وهي منطقة في اليونان القديمة اكتُشف فيها هذا الحجر السحري لأول مرة.

أسطورة: يرى الكثير من علماء اللغويات أن أصلها يعود للكلمة اليونانية (Historia) والتي كانت تعني البحث، الإخبار، أو سرد القصص الإخبارية.

موسيقى: أصلها (Mousiki)، وهي الفنون المنسوبة إلى الميوزات (Muses) وهنّ إلهات الإلهام والفنون والتاريخ التسعة في الميثولوجيا اليونانية.

طاووس: حتى أسماء بعض الحيوانات والطيور! أصلها اليوناني هو (Taos) وانتقلت إلى العربية عبر السريانية.

عقوبة الطماطم والبيض؟ لا، اليونانيون كانوا يرشقون بـ الملفوف في المسارح الحديثة، اعتاد الجمهور الغاضب أن يرشق الممثلين الفاشلين بالطماطم أو البيض الفاسد، لكن في أثينا القديمة كان الأمر مختلفاً وأكثر غرابة. إذا لم يعجب الجمهور أداء الممثل المسرحي، كانوا يرشقونه بالملفوف (الكرنب) لم يكن الأمر مجرد إهانة، بل كان اليونانيون يؤمنون علمياً وطبياً أن رائحة وأوراق الملفوف لها قدرة سحرية على علاج الصداع وامتصاص طاقة الغضب. لذلك، كان رشق الممثل الفاشل بالملفوف يعني حرفياً: أداؤك السيئ أصابنا بالصداع، خذ هذا لتستعيد وعيك!

ألعاب أولمبية بلا ملابس والسبب ركضة واحدة

قد يبدو الأمر صادمًا لثقافتنا الحديثة، لكن الرياضيين في الألعاب الأولمبية القديمة كانوا يتنافسون عراة تماماً! في البداية، كان الرياضيون يرتدون مآزر خفيفة حول خصورهم، حتى جاءت سنة ٧٢٠ قبل الميلاد. في تلك السنة، كان هناك عداء يدعى أوريبوس من ميغارا يركض في سباق سريع، فانزلقت مئزرته وسقطت أرضاً، لكنه استمر في الركض وفاز بالسباق. منذ ذلك اليوم،

اعتقد اليونانيون أن العري الكامل يمنح الرياضي سرعة أكبر وخفة في الحركة، فضلاً عن أنه كان يعتبر تعبيراً عن الفخر بالجسد البشري اللائق والمنحوت، وتحول العري إلى شرط إلزامي للمشاركة.

رسائل الحب القاتلة (رمي التفاح)

إذا أردت أن تعترف بحبك لفتاة في اليونان القديمة، فإياك أن تكتب لها رسالة أو تقدم لها ورداً؛ كل ما كان عليك فعله هو أن ترمي عليها تفاحة! في الثقافة الإغريقية، كان رمي التفاح يُعتبر طلباً رسمياً للزواج وإعلاناً عن الحب الفوري. وإذا التقطت الفتاة التفاحة، فهذا يعني أنها قبلت المشاعر ودخلت في الخطوبة. لكن هذه العادة الشاعرية كانت تحمل جانباً مظلماً؛ فوفقاً للأساطير، كانت تفاحة واحدة رُميت بكبرياء سبباً غير مباشر في اشتعال حرب طروادة الشهيرة وتدمير مدينة كاملة. حيث أن الأسطورة تقول إن إلهة النزاع والخلاف إيريس غضبت لأنه لم يتم دعوتها لحفل زفاف ملكي فجاءت و رمت تفاحة ذهبية وسط الحفل كتب عليها للأجمل فتنافست عليها الإلهات هيرا وأثينا وأفروديت وكان هذا التنافس هو الشرارة غير المباشرة التي أشعلت الحرب.

لعنة الطين المخيف (تذاكر المقابر سحرية)

هل تخيلت يوماً أن يكتب أحدهم رسالة كراهية على قطعة طين ويدفنها في قبر؟ في اليونان القديمة، كان هناك ما يُعرف بـ أقراص اللعنة (Katadesmoi). إذا كان لشخص عدو في التجارة، أو الحب، أو المحاكم، كان يذهب إلى ساحر ليكتب لعنة على صفيحة من الرصاص أو الطين، ثم يتسلل ليلاً ويدفنها في مقبرة شخص مات شاباً أو مقتولاً. كانوا يعتقدون أن

روح الميت لم تذهب بسلام بعد، وبالتالي يمكن لروح الميت أن تأخذ اللعنة وتنفذها ضد الخصم في عالم الأحياء. عثر علماء الآثار على آلاف من هذه اللعنت المدفونة تحت الأرض!

الموت ضحكاً

الفيلسوف اليوناني كريسيبوس مات حرفياً من الضحك! رأى حماراً يأكل التين، فطلب من خادمتة أن تسقي الحمار نبيذاً صرفاً ليغسل التين، وعندما شاهد الحمار يترنح مخموراً، أطلق ضحكة هستيرية تسببت في توقف قلبه وموته فوراً.

البصق لرد الحسد

اليونانيون القدماء (وحتى أحفادهم اليوم) يؤمنون أن البصق (أو إصدار صوت البصق تفو تفو) يطرد الأرواح الشريرة والحسد. إذا رأوا طفلاً جميلاً، يبصقون في الهواء أمامه لحمايته من العين!

ديمقراطية بالقرعة وليس بالانتخاب

في أثينا، معظم المناصب الحكومية والقضاة لم يكن يتم انتخابهم لأنهم اعتبروا الانتخاب نظاماً أرسقراطياً يفوز فيه الأغنياء فقط. بدلاً من ذلك، كانوا يستخدمون آلة حجرية تسمى (Kleroterion) تختار الأسماء بالقرعة العشوائية، ليكون لكل مواطن نفس الفرصة ليكون رئيساً أو قاضياً ليوم واحد!

فوبيا الفاصولياء القاتلة (عندما مرّت الرياضيات عبر المطبخ)

في عالمنا اليوم، ترتبط الفاصولياء بوجبة طعام مغذية، لكن في اليونان القديمة، وتحديدًا في مدرسة الفيلسوف والرياضي الشهير فيثاغورس، كانت الفاصولياء بمثابة محرّم ديني مروّع! أسس فيثاغورس جماعة نباتية سرية تقدّس الأرقام، وفرض على أتباعه قانوناً صارماً يُمنع منعاً باتاً أكل الفاصولياء أو حتى لمسها! كان يؤمن أن حبوب الفاصولياء تحتوي على أرواح الموتى لأن شكلها يشبه الأجنة البشرية، وأن أكلها يسبب غازات تفرغ نسمة الحياة من الجسد. وتقول الأساطير التاريخية إن فيثاغورس نفسه قُتل عندما كان يهرب من أعدائه وتوقف فجأة عند حقل فاصولياء، رافضاً اقتحامه أو دهسه، فلقق به خصومه وقضوا عليه!

المطبخ الإسبارطي (الحساء الأسود الذي جعل الموت أسهل)

إذا كانت أثينا قد اشتهرت بالفلسفة، فإن إسبرطة اشتهرت بـ الحساء الأسود (Melas Zomos)، وهو الوجبة اليومية الإلزامية للمقاتلين. لم يكن هذا الحساء للرفاهية، بل كان عبارة عن لحم خنزير مسلوق في الدم والخل والملح فقط! كان طعمه شنيعاً لدرجة أن رجلاً من مدينة أخرى تذوقه مرة وقال ساخراً: الآن عرفت لماذا لا يخاف الإسبارطيون الموت في المعارك؛ فالموت أهون بكثير من العيش على هذا الحساء!. كانت الدولة تعتمد تقديم هذا الطعام المقرّر لتربية جنود لا يعرفون الدلال، ولا يرون في الطعام سوى وقود للبقاء.

هندسة الخوف من الأرقام (لعنة العدد غير النسبي)

الرياضيات عند اليونانيين لم تكن مجرد أرقام جافة، بل كانت عقيدة وفلسفة تتسم بالكمال. وعندما اكتشف أحد تلاميذ فيثاغورس، ويدعى هيباسوس، وجود الأعداد غير النسبية (مثل الجذر التربيعي للعدد ٢)، وهو رقم لا يمكن كتابته على شكل كسر بسيط ويمتد إلى ما لا نهاية بعد الفاصلة، أصيبت المدرسة الفيثاغورية بالرعب والذعر! اعتبروا هذا الرقم خطيئة تهدم فكرتهم عن الكون الرقمي المتناسق، وللحفاظ على السر، تقول الروايات إنهم أخذوا زميلهم هيباسوس في قارب إلى عرض البحر ورموه غريقاً! لقد كانت الرياضيات علماً يُقتل فيه المرء إذا اكتشف رقماً لا يعجب الفلاسفة.

حلوى العسل والسمس (الجد الأكبر لمكملات الطاقة)

إذا أردنا البحث عن الجد الأكبر لألواح الطاقة الرياضية (Energy Bars)، فسندرك جده في مطابخ اليونان القديمة تحت اسم "إيتريا" (litria)، أو ما نعرفه اليوم بـ المربوبة أو السمس. كانت هذه الحلوى تُصنع من غلي العسل الطبيعي وخلطه بكميات هائلة من السمس حتى يتصلب. لم تكن مجرد حلوى للأطفال، بل كانت تُصنع بطلب رسمي من قادة الجيوش لتقديمها للجنود قبل المعارك الطويلة، وللرياضيين في الألعاب الأولمبية، لأنهم اكتشفوا أنها تمنح الجسم طاقة جبارة وقدرة على التحمل لساعات طويلة دون الشعور بالتعب.

النبيذ لا يُشرب خالصاً

كان اليونانيون يعتبرون شرب النبيذ دون خلطه بالماء علامة على البربرية والهمجية. كانوا يخلطون جزءاً من النبيذ بثلاثة أجزاء من الماء، ومن يشربه مركزاً يُنظر إليه كشخص فاقد لعقله.

الخبز كمناديل سفرة

في المآدب الكبرى، لم يكن هناك مناديل ورقية أو قماشية لمسح الأيدي المليئة بالدهون. بدلاً من ذلك، كانوا يستخدمون قطعاً من لب الخبز الطري لمسح أصابعهم، ثم يرمونها على الأرض لتأكلها الكلاب المحيطة بالطاولة!

نساء أثينا (سجينات البيوت ووريثات الخفاء)

في الوقت الذي كانت فيه أثينا تتغنى بالديمقراطية وحرية التعبير، كانت المرأة الأثينية تعيش في ظل نظام أشبه بالإقامة الجبرية! لم يكن يُسمح للمرأة الشريفة بمغادرة عتبة بيتها إلا في المناسبات الدينية النادرة، وكانت تقضي حياتها في طابق علوي معزول يُسمى الجينيسيوم (Gynaecium) مخصص للنساء فقط. والمفارقة التاريخية الغريبة هي أن المرأة الأثينية لم يكن لها اسم قانوني مستقل يُداول في المحاكم؛ فإذا أراد شخص مقاضاتها أو الحديث عنها، يُشار إليها بابنة فلان أو زوجة فلان. لقد كانت المرأة هناك بمثابة شبح غير مرئي، يُطلب منها تدبير المنزل وإنجاب الورثة دون أن يراها أو يسمع صوتها أحد خارج الجدران.

خطوبة بلا عروس (الصفقة السياسية بين الأب والعريس)

إذا تخيلت أن الزواج في أثينا القديمة يبدأ بطلب يد الفتاة ورضاها، فالحقيقة ستصدمك؛ إذ كان الزواج عبارة عن صفقة تجارية وقانونية متمحورة حول الرجل بالكامل. في يوم الخطوبة، لا تحضر العروس أصلاً! بل يجلس والدها مع العريس المستقبلي (والذي غالباً ما يكون في الثلاثينيات من عمره بينما الفتاة مراهقة في الرابعة عشرة)، ويتبادلان مصافحة رسمية تُدعى الإنجيس (Engyes). كان الأب ينطق بالعبارة الشهيرة: أنا أهبك ابنتي لغرض إنتاج أطفال شرعيين. هكذا، تنتقل ملكية الفتاة من وصاية الأب إلى وصاية الزوج دون أن يكون لها أي رأي في اختيار شريك حياتها.

نساء إسبرطة (الرياضيات الحاكمات وسرقة العروس)

على النقيض تماماً من أثينا، كانت المرأة في إسبرطة تتمتع بقوة وحرية لا مثيل لهما في العالم القديم. الإسبارطيات كنّ يمتلكن الأراضي، ويتلقين تعليماً متطوراً، ويشاركن في مسابقات الجري والمصارعة عاريات تماماً كالرجال لتقوية أجسادهن! ولأن الهدف الأساسي كان إنجاب أبطال، كان للزواج طقس غريب جداً يُسمى اختطاف العروس الرمزي. ليلة الزفاف، تقوم وصيفات العروس بحلق شعر رأسها بالكامل، ويلبسنها ملابس رجال ويتركنها في غرفة مظلمة، ليتسلل العريس سراً ويختطفها! كان هذا الطقس الرمزي يهدف إلى تعويد العريس المقاتل، الذي عاش حياته كلها في المعسكرات الحربية بين الرجال، على فكرة الانتقال إلى الحياة الزوجية.

مستحضرات تجميل قاتلة (بياض الثلج السام)

كانت مقاييس الجمال عند النساء اليونانيات تتطلب بشرة بيضاء ناصعة كمرمر التماثيل، لأن البشرة البيضاء تعني أن المرأة مرفهة ولا تخرج للعمل تحت أشعة الشمس. ولتحقيق هذا المظهر، لجأت النساء إلى حيلة مرعبة طلاء وجوههن بمسحوق مصنوع من الرصاص الأبيض. ورغم أن هذا المسحوق كان يمنحهن بياضاً ساحراً، إلا أنه كان يتسرب عبر الجلد ويسبب التسمم البطيء، وتساقط الشعر، وجفاف البشرة، والموت المبكر. لقد كانت المرأة اليونانية تضع سمّاً حقيقياً على وجهها يومياً لمجرد ملاحقة معايير الجمال النمطية في عصرها.

علاج الاكتئاب بالزواج

كان الأطباء اليونانيون يؤمنون بخرافة طبية تقول إن رحم المرأة كائن حي يتجول داخل جسدها! وإذا بقيت المرأة دون زواج أو إنجاب لفترة طويلة، فإن الرحم يجوع ويتنقل إلى الأعلى مسبباً ضيق التنفس والاكتئاب والجنون. وكان العلاج الطبي المعتمد لديهم هو الزواج الفوري!

حق الطلاق بيد المرأة الإسبارطية

في إسبرطة، إذا ذهب الزوج إلى الحرب ولم ينجب أطفالاً، أو إذا ثبت أنه ضعيف، كان يحق للمرأة قانوناً أن تطلب الطلاق وتتزوج من رجل آخر أكثر قوة وشجاعة لإنجاب أطفال أصحاء للدولة، دون أي وصمة عار اجتماعية.

ألعاب الطفولة المحترقة (وداعاً للبراءة على عتبة الزفاف)

في مجتمعاتنا الحديثة، تحتفظ الفتيات بألعاب طفولتهن للذكرى، لكن في اليونان القديمة، كان الانتقال من الطفولة إلى الأنوثة يتطلب طقساً جنائزياً للعب! عندما تصل الفتاة إلى سن الزواج (حوالي ١٢ إلى ١٤ عاماً)، كان يتعين عليها في الليلة التي تسبق زفافها أن تأخذ جميع دمياتها، وألعابها، وملابس طفولتها وتذهب بها إلى معبد الإلهة آرتميس (حامية العذارى). هناك، تقوم الفتاة بحرق دمياتها وتقديمها كقربان؛ وكان هذا الطقس الرمزي الصارم يعني تفحيماً حرفياً لعهد الطفولة وبراءتها، وإعلاناً رسمياً بأنها أصبحت امرأة بالغة ناضجة، ومستعدة لدخول عالم الرجال الإلزامي.

لعنة الخائنة ونهايتها على ظهر حمار

بينما كان يُسمح للرجال في أثينا بحرية العلاقات خارج إطار الزواج دون أي عقاب قانوني، كانت عقوبة المرأة المتزوجة إذا ضُبطت في علاقة خارج الزواج مرعبة واجتماعية بامتياز. لم تكن تُقتل، بل كان يتم تجريدها من جميع حقوقها كمواطنة، ويُحظر عليها دخول المعابد (ومن تدخل تُجلد علناً)، ويُجبر زوجها قانوناً على طلاقها فوراً وإلا خسر شرفه. وفي بعض المدن اليونانية الأخرى، كان العقاب أكثر إشهاراً؛ إذ كانوا يركبون المرأة الخائنة على ظهر حمار ويطوفون بها في أرجاء المدينة وهي تتعرض للشتم والرقص الساخر من العامة، وتُلَقَّب طوال حياتها بـ المرأة الحمار، لتتحول إلى عبرة متحركة لكل نساء المدينة.

دموع مأجورة (محترفات النحيب في مآتم اليونان)

لم تكن عادات النساء غريبة في الحياة والزواج فقط، بل حتى في الموت؛ فالمرأة اليونانية كانت هي المسؤولة الأولى عن طقوس الجنازات. ومن أغرب التقاليد التي ظهرت آنذاك هي وظيفة النائحات المحترفات. إذا مات شخص غني، لم تكن دموع العائلة كافية لإظهار مكانته الاجتماعية؛ لذلك كانت العائلات تستأجر نساءً غريبات مهمتهن الوحيدة هي البكاء والعويل بصوت مرتفع جداً، وتمزيق ملابسهن، ولطم خدودهن، بل وحتى خدش وجوههن بأظافرهن حتى تسيل الدماء أمام الناس! كان حجم الصراخ وكمية الدموع المذروفة في الجنازة مقياساً مباشراً لمدى أهمية وثراء المتوفى.

حيلة النعناع المقاومة للحمل (طب المطبخ السري)

في عالم يغيب فيه الطب الحديث، كانت النساء اليونانيات يتداولن أسراراً ووصفات غريبة للتحكم في الإنجاب. ومن أغرب ما دونه الأطباء والمؤرخون هو استخدام النعناع البري (Pennyroyal). كانت النساء يشربن منقوع هذا النبات أو يستخدمنه بطرق موضعية لاعتقادهن أنه يمنع الحمل أو ينهيه في بداياته. ورغم أن هذا النبات يحتوي على زيوت طيارة سامة إذا أخذت بجرعات كبيرة، إلا أن هذه الوصفة المطبخية ظلت سرّاً تتوارثه النساء في الخفاء هرباً من أخطار الولادات المتكررة التي كانت تحصد أرواح الكثير من الفتيات الصغيرات في ذلك العصر.

خاتم الزواج في الإصبع الرابع

اليونانيون القدماء هم أول من نشر فكرة ارتداء خاتم الزواج في الإصبع الرابع (البنصر). والسبب؟ كانوا يعتقدون طبياً وتشريحياً أن هناك عرقاً

عصبياً رفيعاً يخرج من هذا الإصبع بالذات ويتجه مباشرة إلى القلب، وأطلقوا عليه اسم عرق الحب (Vena Amoris).

لزواج بالأقارب لحماية الإرث

في أثينا، إذا مات أب ولم يكن لديه أبناء ذكور وترك ابنة وحيدة (تُسمى إبيكليروس)، لم تكن ترث المال لتتصرف به، بل كان يُجبر أقرب عم لها أو ابن عم على الزواج منها (حتى لو كان متزوجاً بالفعل فيطلق زوجته)، وذلك فقط لضمان بقاء ثروة العائلة وأراضيها داخل القبيلة وعدم خروجها لغرباء!

خديعة الدبابيس القاتلة (ثورة الملابس التي غيرتها النساء)

في البداية، لم تكن الملابس اليونانية تُخاط بالإبرة والخيط، بل كانت عبارة عن قطعة قماش واحدة تُلف حول الجسم وتُثبت عند الكتفين بدبابيس برونزية ضخمة وحادة تُشبه الخناجر الصغيرة! لكن هذا الزي، المسمى الدوريك (Doric Peplos)، تسبب في كارثة دموية بأثينا. تروي الأساطير التاريخية أنه عندما عاد جندي واحد حياً من معركة كارثية، هجمت عليه زوجات الجنود القتلى بغضب عارم، واستلن دبابيس ملابسهن الضخمة وطعننه بها حتى الموت! بعد هذه الحادثة المرعبة، أصدرت حكومة أثينا قانوناً يمنع النساء من ارتداء هذا الزي، وأجبرتهن على التحول لزي آخر يُثبت بأزرار صغيرة، خوفاً من تحول دبابيس الثياب إلى أسلحة فتاكة في أيدي النساء.

الliche الإسبارطية (قصاص الجبن الذي يُحلق نصفه)

لم تكن اللحية في اليونان القديمة مجرد خيار للأناقة، بل كانت الرمز الأقدس للرجولة، والحكمة، والجاهزية للحرب. وكان المساس بها يُعتبر إهانة كبرى. وفي إسبرطة العسكرية، ابتكر القادة عقوبة نفسية مرعبة للجنود الذين يظهرون جبناً في المعارك؛ لم يكونوا يسجنونهم، بل كانوا يحلقون نصف لحي هؤلاء الجنود ويتركون النصف الآخر! كان هذا التشويه البصري المتعمد يعني إعلان الشخص جبناً علناً أمام المجتمع، وكان الرجل يُجبر على المشي بنصف لحية ليتحمل نظرات السخرية والازدراء من الجميع، وهي عقوبة نفسية كانت تدفع بعضهم لتمني الموت في المعركة على تحمل هذا الخزي.

مقاييس الوسامة الصادمة (الأنف الإغريقي والجبهة الضيقة)

لو قُدِّر لعارض أزياء معاصر أن يعود لليونان القديمة، لربما اعتبروه قبيحاً! فقد كانت مقاييس وسامة الرجال صارمة ومحددة بدقة في تماثيلهم وفلسفتهم. كان الرجل المثالي يجب أن يمتلك أنفاً إغريقياً مستقيماً تماماً يتصل بالجبهة دون أي انحناء أو خط فاصل بين العينين. والأغرب من ذلك، أنهم كانوا يقدسون الجبهة الضيقة الصغيره؛ فالرجل الذي يمتلك جبهة عريضة أو شعراً يتراجع للخلف كان يُعتبر أقل جاذبية. كما كان يُنظر للجسد الرياضي ذي العضلات المنحوتة المشوقة والخصر النحيل كدليل على تفوق الروح والعقل، وليس مجرد قوة بدنية.

لعنة الصلح (عندما بحث الفلاسفة عن بصلة الإنقاذ)

على الرغم من تقديسهم للحكمة التي تأتي مع تقدم العمر، إلا أن الفلاسفة والرجال اليونانيين كانوا يصابون بالرعب من الصلح، لأن تساقط الشعر كان

يتنافى مع صورة الشباب الدائم والوسامة الكلاسيكية. الفيلسوف الشهير أرسطو نفسه عانى من الصلع، وكتب في أبحاثه الطبية وصفات غريبة جداً لمحاربة تساقط الشعر؛ حيث كان ينصح الرجال بخلط البصل المفروم مع غسل النحل والبول، وطلاء الرأس بهذا المزيج الغريب يومياً! ورغم العبقرية الفلسفية لأرسطو، إلا أن وصفته الكيميائية لم تنقذ رأسه ولا رؤوس أتباعه من الصلع، لكنها تركت لنا دليلاً طريفاً على أن هوس الرجال بمظهرهم قديم قدم التاريخ.

مظلات الشمس للجماليات فقط

في أثينا، كان الطقس حاراً، لكن كان يُحظر تماماً على أي رجل أن يحمل مظلة لحمايته من الشمس. حمل المظلة كان يُعتبر علامة صارخة على الأنوثة والضعف، والرجل الذي يفعل ذلك يخسر هيئته وذكورته في عيون المجتمع فوراً.

ربطة التوجا والمشية الوقورة

الملابس اليونانية للرجال (مثل الهيماتيون) كانت تُلف بطريقة معقدة دون أي أربطة أو أحزمة. هذا التصميم لم يكن عشوائياً، بل كان يجبر الرجل على المشي ببطء، ووقار، وانتصاب شديد؛ لأن أي حركة سريعة أو طائشة كانت ستؤدي إلى تفكك القماش وسقوطه، وبالتالي كانت طريقة المشي تعكس مدى انضباط الرجل وأرستقراطيته!

أثينا والزيتون

وفقاً للأساطير اليونانية، عندما بُنيت المدينة لأول مرة، كانت موقعاً جغرافياً عبقرياً ومزدهراً، فتنافس على رعايتها وتسميتها إلهان كبار من آلهة الأوليمبوس بوسيدون (إله البحر) وأثينا (إلهة الحكمة). ولحل هذا النزاع دون حروب، قرر ملك المدينة والبشر أن الفائز بالرعاية والتسمية هو من يقدم أفضل وأثمن هدية للمدينة وسكانها

ضرب بوسيدون الأرض برمحه الثلاثي فخرج نبع ماء متدفق؛ لكن المفاجأة أن الماء كان مالحاً كبحر ولم يستفد منه السكان للشرب أو الزراعة.

ضربت أثينا الأرض برمحتها فخرجت من باطن التربة شجرة زيتون مباركة؛ وفرت للسكان الغذاء (الزيتون)، والطاقة والتجارة (الزيت)، والخشب للبناء.

أعلن السكان والملك فوز الإلهة أثينا لأن هديتها كانت رمزاً للحياة والنماء، وتقديراً وتخليداً لها، أطلقوا اسمها على المدينة لتصبح أثينا، واعتبروها حاميتهم الرسمية وبنوا لها معبد البارثينون الشهير فوق تلة الأكروبوليس بحجم مهيب.

السخرية الإسبارطية من الذهب

لحماية مجتمعهم من الجشع والطبقية، حظر قانون إسبرطة عملات الذهب واستبدلها بقضبان ضخمة وثقيلة من الحديد المغمس بالخل ليصبح قبيحاً وهشاً. كانت العملة متدنية القيمة لدرجة أنك تحتاج لعربة يجرها ثور لحمل ثمن وجبة بسيطة، مما قضى على الرشوة والسرقة تماماً؛ فمن سيسرق كنزاً يحتاج لعربة للاختباء به؟

قراصنة سيلسيا وسر الفداء العظيم

خطف القراصنة في البحار اليونانية يوليوس قيصر وهو شاب وطالبوا بفدية قدرها ٢٠ وزنة من الفضة، فضحك وسخر منهم وطلب أن يجعلوها ٥٠ وزنة لعظم شأنه! وخلال أسره، كان يعاملهم كأنه سيدهم ويهددهم بالصلب ضاحكاً. وبمجرد دفع الفدية، عاد بأسطول حربي وقبض عليهم وصلبهم جميعاً كما وعدهم.

تكتيك النطاح البرونزي

كانت سفن القراصنة والحروب تُزود بنطاح برونزي مسنن (Embolos) يبرز تحت خط الماء. التكتيك كان يعتمد على الاندماج بسرعة قصوى لضرب جانب سفينة العدو، مما يمزق الألواح الخشبية ويغرق السفينة بطاقمها وثرواتها في ثوانٍ معدودة قبل أن يستلوا سيوفهم.

خلف كواليس التاريخ (أسرار الدروع والفتوحات)

طقس السكر الإجباري للعبيد

في إسبرطة، كان القادة يجبرون رجلاً أو أكثر من عبيد الهيلوت على شرب كميات هائلة من النبيذ الصافي غير المخفف حتى يصلوا إلى حالة السكر الهستيرى والغثيان، ثم يجرونهم إلى قاعات الطعام العامة أمام الأطفال والشباب، ليرى الأطفال كيف يُفقد النبيذ كرامة الرجل وينشأوا على كراهية الدلال وضياع العقل.

الكريبتيا واصطياد الأقوياء

ارتبط بنظام إسبرطة العسكري جهاز مخابرات داخلي مرعب يُدعى الكريبتيا. كان الشباب النخبة يُرسلون إلى الريف والمزارع ليلاً وهم مسلحون بخناجر صغيرة فقط، ويُطلب منهم مراقبة واصطياد وقتل أي عبد من الهيلوت يظهر علامات القوة البدنية أو ملامح القيادة، خوفاً من ثوراتهم العارمة.

عصا السايغال (التشفير الخشبي)

أول جهاز تشفير عسكري في التاريخ ابتكرته إسبرطة لحماية الرسائل؛ حيث يلف القائد شريطاً جلدياً بشكل لولبي حول عصا ذات قُطر محدد بدقة ويكتب رسالته أفقياً. بمجرد فك الشريط تتبعثر الأحرف وتبدو كخربشات عشوائية، ولا يمكن للعدو قراءتها إلا إذا امتلك عصا مطابقة تماماً بذات القُطر.

الوشم على الجماجم

حيلة استخباراتية عبقرية استخدمها القادة، حيث يتم حلق رأس العبد بالكامل ووشم الرسالة السرية مباشرة على جلدة رأسه، ثم يُترك لعدة أسابيع حتى ينمو شعره تماماً ويخفي الوشم. يسافر العبد كمسافر عادي، وبمجرد وصوله للقائد المستهدف، يحلق رأسه مجدداً لتُقرأ المؤامرة المكتوبة.

موت الشرف للأمهات

في إسبرطة العسكرية، كان يُحظر تماماً كتابة اسم أي شخص على شواهد القبور عند الموت لحظر مظاهر الدلال، باستثناء فئتين فقط نالتا هذا الشرف العظيم الرجل الذي يستشهد في أرض المعركة تلبية لنداء الوطن، والمرأة التي تموت أثناء عملية الولادة لأنها اعتُبرت كالجندي الذي سقط وهو يحاول إنجاب مقاتل جديد للدولة.

حين ضاقت الأرض بأحلام البشر

لم تبدأ هذه الحكاية برجل أراد أن يملك العالم، ولم تنتهِ حين سقط الرجل الذي ظنَّ أن العالم قد يتَّسع لحلمه.

بدأت قبل ذلك بكثير، حين وقفت مدن اليونان على حواف خلافتها، تنظر إحداها إلى الأخرى بعين الريبة، كأن البحر الذي جمعها لم يكن واسعاً بما يكفي ليطفئ نار المنافسة بينها. هناك، في إسبرطة، صيغت الحياة على إيقاع الانضباط والقوة، وتعلَّم الفتیان أن أجسادهم ليست ملكاً لهم وحدهم، بل جزء من مدينة لا ترحم الضعف كما تتصوره. وفي أثينا، ازدهرت الأسئلة والخطب والفنون، وارتفعت أصوات تتحدث عن الحرية، بينما بقيت أبواب تلك الحرية مغلقة في وجه كثيرين.

كانت المدينتان مختلفتين إلى حدِّ بدا معه الاتفاق مستحيلاً، لكنهما تشابهتا في شيء لم تستطيعا الإفلات منه الرغبة في أن تكون كلُّ منهما المثل الذي ينبغي للعالم أن يتبعه.

وحين تصادمتا، لم تكن الحرب مجرد جيوش تتقدم وجنود يسقطون. كانت سنوات تتسرَّب من أعمار الناس، وبيوتاً تنتظر عائدين لن يعودوا، وأمّهات يتعلمن أسماء المعارك كما يتعلمن أسماء الموتى. كانت انتصارات تُرفع لها الأناشيد، ثم تأتي الأيام لتكشف أن المنتصر قد خسر من روحه ما لا تستطيع الغنائم تعويضه، وأن المدينة التي تُنهك خصمها قد تخرج من الحرب منهكة هي الأخرى. لكن التاريخ لا يحتفظ بالحروب وحدها.

فخلف الأسوار، كانت الحياة تواصل حيلها الصغيرة. في الأسواق، امتدت الأيدي نحو السلع والمال، وفي البيوت نُسجت الحكايات، وفي الاحتفالات

اجتمعت الأجساد على الموسيقى والطقوس، وفي الملاعب تنافس الرياضيون أمام أعين الآلهة والناس. وبين هذه المشاهد ظهرت عادات قد تفاجئنا، وممارسات قد تبدو لنا اليوم غريبة أو قاسية، وأسئلة عن الجسد والمرض والجمال والقوة لم تكن إجابات أصحابها تشبه إجاباتنا.

كلما اقتربنا من هؤلاء القدماء، اكتشفنا أن الحضارة ليست واجهة من الرخام الأبيض، ولا تمثالاً كامل الملامح يقف خارج الزمن. إنها أيضاً ما كان يحدث بعيداً عن المنابر والمعابد؛ ما كان يُقال همساً، وما كان يُمارس بوصفه أمراً عادياً، وما كان الناس يؤمنون به من دون أن يخطر لهم أن أجيالاً بعيدة ستتوقف يوماً أمامه بدهشة، وربما بشيء من عدم التصديق.

لهذا لم تكن الخفايا هامشاً في هذه الرحلة، بل نوافذ أخرى عليها. فمن خلالها رأينا أن الإنسان القديم لم يكن صورة واحدة، وأن وراء أسماء المدن العظيمة بشرًا لهم مخاوفهم ورغباتهم ومبالغاتهم وأخطاؤهم، وأن ما يبدو لنا اليوم مستغرباً قد كان، في زمنه، جزءاً من نظام الحياة أو من التصورات التي حاول الناس بها فهم العالم. ثم جاء المقدونيون.

لم يظهروا في نهاية الحكاية كأنهم خرجوا من فراغ، ولم يكن صعودهم مجرد فصل جديد في سجل الحروب. كانت مقدونيا قوة أخذت تتقدم في عالم أضعفته صراعاته، حتى جاء فيليب الثاني فحوّل القوة إلى مشروع، والجيش إلى أداة منظمة، والطموح إلى سياسة. وعندما مات، انتقلت الراية إلى ابنه، فبدأت الحكاية تتجاوز الحدود التي اعتاد العالم اليوناني أن يقيس نفسه بها.

كان الإسكندر يحمل معه إرثاً من المدن واللغة والأساطير والحروب، لكنه لم يكتفِ بالبقاء داخل حدوده. عبر إلى آسيا الصغرى، وواجه الإمبراطورية الفارسية، واجتاز بلاداً لم يعرفها كثير من اليونانيين إلا من خلال الروايات،

ووصل إلى مصر، ثم مضى أبعد، حتى صارت المسافات نفسها جزءاً من حكايته. تبدلت أسماء المدن تحت وقع الجيوش، وظهرت مراكز جديدة، والتقت شعوب ولغات وعادات لم تكن قد اجتمعت من قبل على هذا النطاق. ولم تكن تلك اللقاءات سلاماً خالصاً ولا غزواً يمكن اختصاره في صورة واحدة؛ كانت عالماً يتغير بالقوة والتبادل معاً، ويترك وراءه آثاراً لم تتوقف عند حدود حياة صاحبه.

وربما كان أكثر ما يثير التأمل في قصة الإسكندر أن اتساع مملكته لم يمنحه وقتاً كافياً ليرى ما ستؤول إليه. فقد مات في بابل سنة ٣٢٣ قبل الميلاد، وهو في الثانية والثلاثين تقريباً، بعد سنوات قليلة من الفتوحات التي غيرت خريطة العالم القديم. لم يترك وراءه نهاية واضحة لمشروعه، بل ترك سؤالا كبيرا ماذا يحدث للحلم حين يموت صاحبه قبل أن يكتمل؟

تفرّق القادة، وتنازعوا على الأرض والسلطة، وتحولت الإمبراطورية التي اجتمعت تحت رايته إلى ممالك متنافسة. لكن ما انكسر سياسياً لم يختفِ كله؛ فقد بقيت مدن ومراكز ثقافية، وانتشرت اللغة اليونانية في مناطق واسعة، وبدأت مرحلة جديدة من التاريخ، لم تعد فيها الحكاية حكاية اليونان وحدهم، ولا حكاية مقدونيا وحدها، بل حكاية عالم تشابكت فيه الثقافات على نحو أوسع.

وهنا، عند نهاية هذا الجزء، قد يبدو لنا أن الطريق انتهى عند موت الإسكندر. لكن الموت لا يغلق كل الأبواب؛ أحياناً يتركها مفتوحة على أسئلة أكبر من الحياة نفسها. فما الذي يبقى من رجل حين يرحل؟ ما الذي يبقى من مدينة حين تسقط؟ وهل تُقاس عظمة الحضارات بما استطاعت أن تستولي عليه، أم بما تركته في عقول الذين جاؤوا بعدها؟ إن الخرائط تتغير، والتيجان

تنتقل من رأس إلى آخر، والأسماء التي ملأت الدنيا ضجيجًا قد تصبح يومًا سطرًا في كتاب. ومع ذلك، تبقى فكرة هنا، وحكاية هناك، وأثر صغير يعبر القرون حتى يصل إلى قارئ لم يكن قد وُلد حين حدث كل ذلك.

وربما لهذا السبب نعود إلى الماضي. لا لنبحث عن أبطال لا يخطئون، ولا عن أمم لم تعرف الهزيمة، بل لنقترب من الإنسان في لحظات قوته وضعفه، حين يبني ويهدم، ويحلم ويخاف، ويطلب الخلود فيما لا يملك حتى ضمان الغد.

لقد رأينا في هذه الرحلة مدناً أرادت أن تسود، وجيوشاً أرادت أن تنتصر، وفلاسفة حاولوا أن يجدوا للنظام معنى، وأناساً عاشوا تفاصيل يومية لم يظنوا يوماً أنها ستصبح مادة للدهشة. ورأينا كيف يمكن للحرب أن تمهّد لصعود قوة جديدة، وكيف يمكن لموت واحد أن يغيّر مصير إمبراطورية، وكيف تعيش آثار حضارة بعد أن تتغير لغات أهلها وحدود بلادها.

لكن الحكاية لم تنته. فوراء موت الإسكندر عالمٌ أخذ يتشكّل من بقايا إمبراطوريته، عالمٌ تنتقل فيه الأفكار بين المدن، وتلتقي فيه الآلهة والفنون والعلوم والتقاليد، وتولد فيه أسئلة جديدة من احتكاك شعوب لم تعد تفصل بينها المسافات القديمة. هناك، حيث تتفرع الطرق التي فتحتها الغزو وتعيد التجارة والثقافة رسمها، تبدأ حكاية أخرى. أما نحن، فنغادر هذا الجزء كما يغادر المسافر مدينة عند الفجر؛ نلتفت مرة أخيرة إلى أسوارها، ونحمل معنا ما رأيناه وما لم نفهمه تمامًا، ونعرف أن وراء الأفق أرضاً أخرى تنتظر أن نصل إليها. لقد ظنّ بعض الرجال أن العالم يمكن أن يصبح ملكاً لهم، لكن العالم كان أوسع من أحلامهم، وأطول عمراً من انتصاراتهم. بقيت الأرض بعدهم، وبقيت الحكايات، وبقي السؤال الذي لا يشيخ كم من الذين أرادوا امتلاك العالم، لم يدركوا أنهم لم يكونوا سوى عابرين في ذاكرته؟

المراجع والمصادر

المصادر القديمة

١. هيرودوت، التواريخ. مصدر أساسي للحروب الفارسية، والعلاقات بين اليونانيين والفرس، وبعض الروايات عن العادات القديمة.
٢. ثوقيديدس، تاريخ الحرب البيلوبونيسية. من أهم المصادر لدراسة الحرب بين أثينا وإسبرطة، ورابطة ديلوس، وصقلية، وحوار ميلوس.
٣. زينوفون، المؤلفات التاريخية، ولا سيما هيلينيك ودستور الإسبرطيين. يفيد في دراسة إسبرطة والتحولات السياسية والعسكرية بعد الحرب البيلوبونيسية.
٤. أرسطو، دستور الأثينيين. مصدر مهم لتطور المؤسسات السياسية والقوانين والمناصب في أثينا.
٥. بلوتارخ، السير المتوازية، ولا سيما سير سولون، وبريكليس، وألكسندر، وليكورغوس. ينبغي التمييز في استعماله بين الوقائع والروايات التقليدية التي ينقلها.
٦. بلوتارخ، المتون الأخلاقية، وخصوصًا النص المعروف باسم عادات الإسبرطيين القديمة. مرجع مباشر لمراجعة روايات الحساء الأسود والنقود الحديدية وبعض العادات الإسبرطية.
٧. أريان، حملة الإسكندر. مصدر أساسي لتتبع الحملة المقدونية في آسيا، ومعارك الإسكندر وحروبه وإدارته للجيش.

٨. أبقراط وأصحاب المجموعة الطبية المنسوبة إليه، المجموعة الأبقراطية.
مرجع لدراسة التصورات الطبية القديمة، بما فيها بعض النظريات المتعلقة
بجسد المرأة.

الدراسات التاريخية الحديثة

٩. أوزبورن، روبن، اليونان في طور التشكل: من ١٢٠٠ إلى ٤٧٩ قبل
الميلاد. دراسة مفيدة للبدايات اليونانية، والعصرين المظلم والقديم، وتطور
المدن والحروب الفارسية.
١٠. هول، جوناثان م.، تاريخ العالم اليوناني في العصر القديم، نحو
١٢٠٠-٤٧٩ قبل الميلاد. مرجع مناسب لفهم نشأة المجتمعات اليونانية
وتطورها ضمن سياق شرق المتوسط.
١١. هانسن، موغنس هيرمان، الديمقراطية الأثينية في عصر ديموستينيس.
يفيد في فهم مؤسسات أثينا، والقرعة، والاقتراع، وحدود المشاركة السياسية
١٢. كاغان، دونالد، الحرب البيلوبونيسية. مرجع حديث لتدقيق تسلسل
الحرب وأسبابها ومراحلها ونتائجها.
١٣. بوزوورث، ألبرت براين، الفتح والإمبراطورية عهد الإسكندر الأكبر.
مرجع مهم لدراسة الفتوحات وطبيعة السلطة المقدونية ومشكلات الحكم في
الإمبراطورية.
١٤. دراسة منشورة في موسوعة ستانفورد للفلسفة، بعنوان الفيثاغورية.
تفيد في التمييز بين التعاليم الفيثاغورية والروايات المتأخرة عن هيباسوس
والأعداد غير النسبية.

١٥ . دراسة متخصصة في الكريبتيا الإسبرطية، منشورة ضمن مستودع الأبحاث الجامعي الإيطالي. تُستخدم لفهم اختلاف التفسيرات الحديثة لوظيفة الكريبتيا، وعدم التعامل مع جميع الروايات القديمة بوصفها وصفاً مؤكداً لجهاز أمني موحد.

١٦ . المتحف الأثري الوطني اليوناني، دراسة القطعة الشهرية داخل ورشة البياض ومستحضرات التجميل البيضاء. مرجع أثري مفيد لفقرة مستحضرات الرصاص الأبيض.

١٧ . متحف الأكروبوليس، سجل القطعة الأثرية الدمية المفصلية. مرجع مباشر للألعاب والدمى اليونانية واستخداماتها بوصفها ألعاباً أو قرابين أو مقتنيات جنائزية.

الكاتبة أمانى سليمان

سوريا محافظة الحسكة

مدينة القامشلي

مواليد ٢/٨/١٩٨٨

درست في كلية العلوم قسم الكيمياء

أول مؤلفاتها كتاب خواطر بعنوان همسات النسيمات

الثاني كتاب خواطر بعنوان صدى الأفكار

الثالث رواية بعنوان يضمدها الأمل

الرابع كتاب خواطر بعنوان عندما تتحدث الروح

الخامس رواية بعنوان أرواح تتأرجح على كفوف السحر

السادس كتاب خواطر بعنوان يا حزني السعيد

السابع رواية بعنوان قبل أن يراها

الثامن قصة بعنوان وكانت الصدمة

التاسع رواية بعنوان ترتيب القدر

العاشر مسرحية بعنوان النبوءة

الحادي عشر كتاب خواطر بعنوان كلانا يبحث عني

الثاني عشر رواية بعنوان حين تكلم الموت

الثالث عشر رواية بعنوان نالت مرادها

الرابع عشر رواية بعنوان سلام فوق رماد الماضي

الخامس عشر خواطر بعنوان انا امرأة لا يعبرها الزمن

السادس عشر خواطر بعنوان على مائدة الوجدان

السابع عشر سكتشات مسرحية بعنوان من رحم المعاناة

الثامن عشر مونولوجات مسرحية بعنوان القوة تنبع من الداخل

التاسع عشر مونولوجات مسرحية بعنوان أنا والحياة

العشرون مونولوجات مسرحية بعنوان علمتني الحياة

الحادي والعشرون رواية بعنوان لم نخرج سالمين

الثاني والعشرون مسرحية بعنوان مقهى النصائح المجانية

الثالث والعشرون مسرحية غنائية بعنوان ساحة المطر

الرابع والعشرون مسرحية بعنوان مكتب تصليح القدر

الخامس و العشرون مسرحية بعنوان مقهى الرسائل غير المرسلة

السادس و العشرون مسرحية بعنوان شركة ضائعة بين القرارات

السابع و العشرون مسرحية غنائية بعنوان قناديل المنى

الثامن و العشرون خمس سكتشات مسرحية بعنوان مجرات مضيئة

التاسع و العشرون مسرحية بعنوان صندوق الاصوات القديمة

الثلاثون كتاب خواطر بعنوان مسافة نجاة

- خفايا عارية
الحادي و الثلاثون كتاب خواطر بعنوان ألوان قلبي
- الثاني و الثلاثون رواية بعنوان على هامش القرار
- الثالث و الثلاثون مسرحية بعنوان يوميات عريس مفلس
- الرابع و الثلاثون مسرحية بعنوان عريس بالغلط
- الخامس و الثلاثون مسرحية مزاد العرسان
- السادس و الثلاثون مسرحية يوم بدون تمثيل
- السابع و الثلاثون مسرحية غلط بغلط
- الثامن و الثلاثون قصة بعنوان أجساد من كلمات
- التاسع و الثلاثون مسرحية حلم ع السريع
- الاربعون مسرحية غنائية للأطفال المدينة التي تضحك
- الواحد و الاربعون مسرحية غنائية بعنوان مدينة تزهو حين نحب
- الثاني و الاربعون مسرحية بعنوان كل الطرق تؤدي إلي
- الثالث و الاربعون مسرحية بعنوان آخر بث
- الرابع و الاربعون مسرحية بعنوان محكمة الضمير
- الخامس و الاربعون مسرحية بعنوان العريس الضايع
- السادس و الاربعون مونولوجات مسرحية بعنوان بدون تجميل
- السابع و الاربعون مونولوجات مسرحية بعنوان بقايا انسان
- الثامن و الاربعون مسرحية بعنوان مدينة الكذب

التاسع و الأربعون مسرحية بعنوان معجب سبع نجوم

الخمسون مسرحية بعنوان الجلسة الأخيرة

الواحد و الخمسون كتاب خواطر بعنوان قيد من حرير

الثاني والخمسون كتاب بعنوان من المجد إلى الطين (١) الحضارة السومرية

الثالث و الخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد (٢) الحضارة الأكديّة

الرابع و الخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد (٣) الحضارة البابلية

الخامس والخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد (٤) الحضارة الآشورية

السادس والخمسون كتاب بعنوان وصفات الحب

السابع و الخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض (١) حضارتي إيبلا وماري

الثامن و الخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض (٢) اوغاريت والآراميون

التاسع والخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض (٣) الكنعانيون والفينيقيون

الستون كتاب بعنوان من رحم الأرض (٤) الحوريون، العمونيون،

المؤابيون، الأدوميون، الأنباط

الواحد والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض (٥) الفلسطينيين والحثيون

الثاني والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض (٦) العبرانيون والأسرائيليون

الثالث و الستون كتاب بعنوان من رحم الأرض (٧) من حلب إلى حوض

العاصي والممالك المحيطة

الرابع والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض (٨) من المدن الساحلية إلى
ممالك الداخل

الخامس والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض (٩) الأديان و التحولات
الدينية في بلاد الشام

السادس والستون مونولوجات مسرحية بعنوان أصوات من الرماد

السابع والستون مونولوجات مسرحية بعنوان الوجه الآخر

الثامن والستون مونولوجات مسرحية بعنوان وجوه في الغياب

التاسع والستون كتاب بعنوان وكانت القبور أرشيفاً للحضارة (١) ملح وبصل وتيجان

السبعون كتاب بعنوان وكانت القبور أرشيفاً للحضارة (٢) كواليس وخفايا وأسرار

الواحد والسبعون كتاب بعنوان خفايا عارية (١) خيوط الدم وبوابة الشرق